دار القدس

صالح أبو أصبع

محاكمة مديد القامة

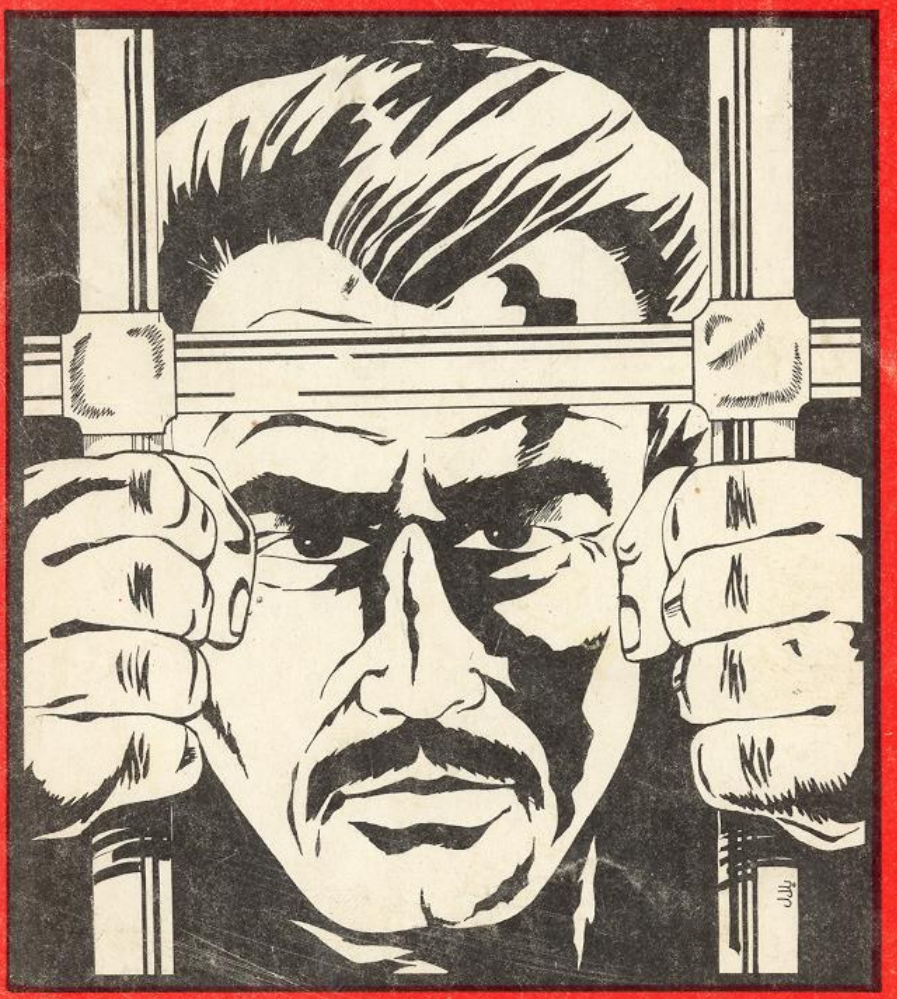

محاكمة مديد القامة

قصص قصيرة

طبعة إلكترونية 2019

محاكمة مديد القامة

قصص قصيرة

(الطبعة الأولى ، بيروت : دار القدس – 1975)

صالح خليل أبو إصبع

الطبعة الثانية

1998

الفهرس

حينما نتحدى الموت	7
هل يفرح مجاهد	33
محاكمة مديد القامة	45
الجسر	55
لو يتكلم الصمت	65
المرآة	75
تنويعات من قلب أيلول الاسود	85
الموت في منزل عربي	91
حوار في حلقة محطمة	103
القبور تتحرك	109

حينما نتحدى الموت

1 . جاءنا الأمر بإخلاء الشارع خلال أسبوع.. فكرت: بيتي.. البيارة.. الزوجة.. الأطفال.. الأصدقاء.. ثم بعد أن ينسفوه إلى أين أذهب.؟

* * *

آخر مرة ذهبت فيها الى القاهرة زرت الأهرام والبرج والقلعة، وقال لي رأفت الفيومي الذي كنت أنزل بضيافته:

– أتمنى أن أزوركم في غزة.

ابتسمت وقلت: بحر غزة سيأسرك. ثم ضحك وقال: وبضائعها. تذكرت الرخاء الذي أصاب القطاع، قبل الاحتلال مباشرة.

* * *

2 . أخبرني تاجر الجملة، أن سعر الحمضيات في انخفاض.. وعرض عليّ ثمناً بخسا لثمار بيارتي.. كان علي خيار ما بين أن أبيعها بهذا الثمن أو أن أترك ثمارها تذوي وتسقط عن أشجارها..

ولكن الأطفال والديون ومسؤوليات كثيرة، تتطلب مبالغ كبيرة، ووعدت زوجتي أن أقدم لها هدية قيمة بعيد زواجنا، بعد أن أبيع ثمار البيارة..

أما زوجتي فقالت: لقد أعطيت وجودك للثورة وبت لا تذكر ان لك اسرة.

* * *

3 . ((يا أم سعيد، تطغى عليّ مشاعر فياضة .. ما أنت أيتها الحبيبة إلا وردة أتوق لشمها.. أواه كم يحن المرء إلى دفء العاطفة حينما تقسو عليه الأيام.

يا أم سعيد، حينما قطعت يدي في حرب 1956.. فإنك ولولت وصرخت وشتمت.. وحينما جاءني اليهود في احتلالهم الأخير، تساءلوا ما الذي قطعها؟ قالوا فدائي.. جرجروني، فدائي.. عربي كلب.. حقير.. جرجروني قلت لهم: أيها السادة، انظروني، أنا ذو اليد المقطوعة لا أقوى على حمل سلاح . قال ذو النجمة السداسية باسما وساخرا:

– لكنك تستطيع أن توزع المنشورات.

ولطمني..

* * *

4 . لطمني والدي رحمه الله مرة حينما هربت من البيت أسبوعا.. ترحمّت على والدي

" أيها الاموات استيقظوا.. فأحياؤكم غارقون في سبات الموت.. اسرافيل امسكْ بصورك، ولتكن نفختك الثانية في خير أمة أُخرجت للناس.." كان والدي يتوق أن يزور البيت الحرام

وزاراه.. كان يتمنى أن يزور المسجد الاقصى، حيث لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.. المسجد الأقصى أحدها.

وضحك والدي كثيرا.. وقال يا ولد.! ها أنا اخيرا.. أزور المسجد الاقصى.. بعد أن استعاد التراب الفلسطيني وحدته..

قال ذلك، فأحسست بطعنة.

وقال والدي:

هي على أية حال وحدة تراب.. رغم ما يعلوه من دنس..

تنفستُ بعمق.

* * *

5 . حينما زرت المدينة المقدسة، كنت أحد ثلاثة، وكان علينا أن نتصل بإحدى خلايانا التنظيمية هناك.

أوصانا أحد الأصدقاء، أن نأكل كنافة جعفر في الشارع القديم وضحكت لحظتها وقلت:

– وهل لدينا وقت لنأكل ما يُحلّي الفم.؟

قال ذلك الشخص:

– حياتنا غصات، أكثير لو تذوقت كنافة بلدك..؟

سرنا في دروب القدس العتيقة.. هبطنا أدراجا متعرجة ، واجتزنا حواري ضيقة. نظرنا الفتيات الجميلات ممشوقات القوام. قال (سامي): انظر إلى تلك

الفتاة إني اشتهيها. قال (علي) لعلك تموت في حضن فتاة أجدى لك من كل ما تصنعه.. ثم ابتسم ساخرا.

قال سامي:

– في لحظة أرغب أن أغرق في اللهو ، في الجنس ، في المتعة ، ماذا أقول لك، حينما قمت بوضع متفجرات على طريق القطار الواصل بين غزة والارض المحتلة قديما.. كانت تتملكني رغبات أن أدمر وجه العالم.. وأن أغرق في جسد امرأة.

قال عليّ:

– لعلك تهرب من أزمة نفسية.

أجاب سامي:

– قد يكون.. لكنني أرى في ذلك صنع العالم من جديد.. بالنسبة لي – على الاقل– كفلسطيني..

قلت له:

– أهي رغبة الموت والحياة..؟

قال:

– قد يكون ذلك.!!

عقبّ عليّ بقوله:

– الأعداء يريدوننا أن نغرق في أجساد النساء.. أنت أعرف الناس بقصص الشباب أولئك الذين اصيبوا بأمراض سرية...

قال سامي بألم:

– هم يبعدوننا إذن عن نصف الحياة الأساسي في وجودنا اننا بحاجة الى الإله (مارس).

بعد ان قمنا بجولة في القدس القديمة والجديدة، قابلنا أفراد الخلية متفرقين ثم التقينا على وليمة مجتمعين.. وحينما خيّرونا بين طعام المنسف او طعام المقلوبة...

قال علي: فلتكن المقلوبة...

وقال أحد الحاضرين:

– أهي استراحة من النسف.؟ أهي استراحة المحارب؟

ضحك عليّ وقال:

– ما فكرت في ذلك.. وليكن ما رأيت.. ولتكن مقلوبة على رؤوسهم ان شاء الله، فضحكنا.

* * *

6 . تتكدس الذكريات كلها في لحظات.. تتجمع إلى أعماق النفس.. قبل أن يأتينا الانذار، تساءلت زوجتي: كيف يمكن أن أؤمن مستقبل الاولاد.؟ وقلت لها (خلّيها على الله) (قل لن يصيبكم الا ما كتب الله لكم).. وما الحياة.؟ وما الوطن.؟ وما الاولاد.؟

تساءلت عن أشياء كثيرة.. ثم كفرت، وقبلت الأطفال ، وداعبتهم ، وأخذوا يعدّون لي مدن فلسطين.

* * *

7 . حينما ذهبت إلى الجامع جلست على بابه ، وكنا ثلاثة ؛ شابان وعجوز. مرت فتيات حسان لم نتركهن على حالهن، وصفنا قوامهن وخضنا في حديث عن أرضنا.. وشتمنا العرب المرفين ابدا.,. وشتمنا قيادتنا التي تتحدث الصحافة عنها كثيرا، والاذاعات اكثر.

تحدث العجوز عن أيامه وشبابهم.. وكيف كانوا يخوضون المعارك ضد الانجليز واليهود.

قلت مازحا:

– تخوض في أمور سياسية وللحيطان آذان.

أثير الرجل وقال:

– منكما أخاف.. وأخاف على ماذا.؟ ثم ضحك.

سألته عن معنى الوطن؟. ولماذا يموت الإنسان من أجله.؟

قال لي العجوز:

– الوطن يا أبا سعيد هو انت وانا والشجرة والجامع والفتيات اللواتي مررن قبل قليل.

ثم قال:

– من اجل ان يبقى ذلك كله نموت.؟ أتعرف لماذا يخون الخائن.؟

وأشار إلى (أبي عليان) الذي كان لحظتها يمر أمامنا. يخون لأنه لا يدرك معاني ذلك.

* * *

8 . وقفنا بالامس في طابور طويل... والأعداء يفتشون عن ذلك الذي قذف قنبلة على دورية من دورياتهم.. ثم هرب.. أخذوا يغربلون فينا.. نظر إليّ شاويش يحمل (العوزي) على كتفه وقال:

– من؟. أبو سعيد.؟ مو معقول.! ها أنت مرة اخرى، قالها بود وبلهجة عراقية.

كان سجّاني في بئر سبع.

قلت له:

– ها أنت مرة أخرى في أرضنا.

قال:

– ما زلت مشاكسا.. هدّك العمر والقتال.. ألن تكفوا عما تفعلونه.؟

قلت له:

– وهل كففتم أنتم.؟

قال:

– سأتركك تذهب.

قلت متسائلا:

– أهي رشوة.؟

قال:

– إذن رشوة.. أنت تعرف لا صداقة بين عدو وعدو ، وجذبني من كُمي المتدلي على ذراعي الايسر، وقال:.

– إذهب قبل أن يجروك مع من يجرونهم.

* * *

9 . مكثت في البيت أياما، وجهي في وجه امرأتي، وذلك إنْ كان له حسنات، فله تبعاته أيضا. كنت لا أفارق السرير إلا قليلا.

قلت لزوجتي: راحة حقيقية، آكل واشرب وأقرأ وأنام وأعاشر زوجتي، ونَظرتْ خجلى. فكّرتُ في الانقطاع عن الرفاق.. اذا لا بد من فترة راحة.. داعبت أطفالي الثلاثة ، ركبوا على ظهري.. وتشاجروا.. ولعبوا (عرب ويهود).. حدّثتهم عن أقاربهم خارج الوطن في الكويت ومصر والاردن ، وسألوني لماذا لا يرون أخوالهم ولا أعمامهم.

فقلت لهم:

– لأن الاعداء يمنعونهم.

هتف الصغير بعذوبة.

..... ابوهم..

وضحكت، كان طفلي يشتم الاعداء؟.

* * *

10. وصلت رسالة عن طريق قبرص من الكويت.. كانت من أحد الاصدقاء يجاملني ويمتدح بقاءنا حيث نحن.. ولا أظن أنّه يتذكرنا إلا حينما تصفعه نشرة أخبار بنبأ قنبلة، ولعلّه يقضي وقته في غرفته المكيفة.. وسيارته.. ويحلم بفتاة جميلة من أجمل فتيات البلد تكون زوجة له.. يشتريها من أهلها.. وأحسست على أية حال بمشاعر فيّاضة آسرة وأخذت أبكي.

سألتني زوجتي: ما الذي يبكيك على فراقه وأنت من لحظة كنت تشتمه.؟ اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب وطوبى للآئذين في محاريب الصمت..

فكرت.. هل صديقي بعيد عني.؟ لماذا بكيت مع أنّي شعرت بضيق منه.؟ لماذا؟؟ لماذا.. الأأنه الوطن؟؟.

* * *

11. جاءني أحد الرفاق يلهث.. طرق الباب بشدة وذكر اسمه ، ففتحت زوجتي الباب. كنت مستلقيا على السرير، دخل وجلس بجواري. قال وكأنه يقذفني بقنبلة:

– ألقوا القبض على (سامي).

قفزت من فراشي .. قُبض على سامي.؟ إذن قيادتنا في خطر.. علينا أن نتدبر أمورنا عاجلا.. اجتعمت برفاقي أعلموني الحقيقة.

استشهد سامي.. وما بكيت ، وإن عجزت عن التفوه بكلمات ترجّعتْ في حلقي..

تكلم أحد الرفاق وكان يلقي خطبة.. عن الثورة.. عن الشعب الذي يلد ثوارا وعن الأرض التي تخرج من حضنها أبطالا.

ظللت استمع الكلام.. وخيّم الوجوم حينما سمعنا صوتا قريبا.

قلت لهم:

– ان الاعداء سوف يعتبرون ذلك انتصارا ساحقا، وواجبنا ألا يتم ذلك.

تساءل أحد الرفاق عن الفراق الذي يتركه الشهداء.

أجاب واحد: الفراغ ليس المشكلة وإنما أن نستمر، ذلك ما نهدف اليه.

* * *

12. الأهداف منها القديمة ومنها البعيدة.. سألتني زوجتي إذا مان بإمكاني أن أتدبر عشرة جنيهات، من أجل أن تشتتري للاطفال ملابس. وقالت أنت تهب وجودك للثورة.. ولا أسألك شيئا.. أبناؤك لهم عليك حق، وعلى الثورة.

قاطعتها وقلت بأن تنتظر أسبوعا كي أدبّر المبلغ.. وطبعتُ على شفتيها قبلة حارة وتملصت مني وفي نظرتها الف كلمة.. وقلت لها أني أرغب في رؤية الأطفال بثياب جديدة.

وابتسمت وقالت: ولكنك لا تملك شيئا، وما تملكه يذهب في غور الارض.

قلت: لعله ينبت سنابلا.

* * *

13. رأيت سنابل القمح وهي تتماوج بلونها الاصفر، وكأنه الذهب. وتذكرت حكمة قرأتها في مدرسة ابتدائية (عن الذين غرسوا فأكلنا.. ونغرس فيأكلون).. وتساءلت هل زرع أسلافنا الصبير والعلقم والبلوط؟. واذا كانوا لم يفعلوا ذلك فماذا زرعوا.؟

كنا نتجادل كثيرا عن الجيل السابق وما قدمه لنا.! البعض قال لم يسلّمونا سوى الجهل واليهود والتراث الميت، وشرف المرأة الذي يكون عادة أغلى من شرف الوطن.

وصاح سامي يومها:

– واضيعتاه.

صمت الجميع: وتساءلوا عما أصابه وبصرخته الموجوعة تلك. حدثهم عن الجيل السابق وعن جيل نعاصره، يرفض أن نقرأ كتبا عن الاشتراكية والحرية والحب والجنس.

وقال ثائرا:

– تصوروا، ذلك كابوس حقيقي يحرم علينا التنفس.

وسأله واحد:

– أي كابوس تعني.؟

أجابه:

– كلها، كل الكوابيس هنا ؛ وضرب يده على صدره، وهنا ؛ ووضع يده على رأسه، ثم هنا ؛ وأشار بيده حول جسده.

* * *

14. كان جسد سامي مسجى، حينما ألقوه لنا.. حاول بعض المتحمسين أن يجعلوا من استشهاده ظاهرة تليق ببطولته.. لكننا آثرنا الصمت.

مات سامي.. هكذا قال لي الشيخ العجوز الذي حدثني عن معنى الوطن. حينما التيقته، سألني عن استشهاد سامي، وتحدث عنه باعتزاز وفخر مشيرا إلى صلة القرابة البعيدة التي تربطه به.

ثم سألني:

– أتعرف ما الوطن يا ابا سعيد.؟ هذا هو الوطن... أن تموت وبيدك الرشاش تقاوم الاعداء حتى من غير أمل في النجاة ، هذا هو الوطن.. لا تسألني كيف ولماذا.؟ ولكن هو الوطن وحسب.

* * *

15. حاولت زوجتي أن تعزّيني، قلت لها قد يأتي دوري ودورك ودور الاولاد يا أم سعيد المهم أن نبقى.

رأيت دموعها تسحّ من مقلتيها.. عرفت ما يجول بذهنها.. اليتم.. الترمل.. ثلاثة أطفال وامرأة شابة.

وسألت: أي نوع من البقاء تعني.؟

أجبتها: تبقى إرادة الحياة.. فيبقى هناك شعب.. ويبقى هناك وطن.

– اتعني بقاء الوطن.؟

– وهل تفضلين نفسك عنه.؟

* * *

16. استوقفتني ابنة عمي.. وقالت لقد ضقت بحياتي.. أريد أن أنفصل عن زوجي يا أبا سعيد.. وأخذت تبكي في عرض الشارع.. عدت معها إلى بيتنا وقالت.. أنّ زوجها لا تراه الا مرة في الشهر، ولا يأتي إلا لماما الى البيت، شعرت بأزمتها النفسية والمادية والجنسية أيضا.. ولكنني كنت أدرك أي نوع من المقاتلين زوجها.. أما هي فلا تدري شيئا.! أخذتْ زوجتي تسري عنها.

(وقلت لها: أنّ زماننا يستحق نساء عظيمات مثلكن.. ولأننا رجال من طين.. فعلى النساء ان يتحملن هذه المادة التي يجب أن تذرها في وجه الاعداء.

كانت تستمع ولا أظن أنها كانت تتابع ما أقول، او أنّها وعت ما سمعت. عرضت زوجتي عليها أن تقيم في بيتنا، فذلك يخفف من وحشتها ترددت، ثم قبلت.

للحظات فكرت في فم جديد يحتاج لطعام، واحتقرت سوء تفكيري وكانت بي رغبة حادة للبصاق ففعلت ذلك.

* * *

17. الافعال الإرادية التي نصنعها، قد تكون ذات مردودات لاإرادية حينما حاولت منع التظاهرة التي تسير مع نعش الشهيد، استدعيت من قبل الحاكم العسكري الاسرائيلي.

ومن عجائب الصدف، أنه مد يده لي شاكرا فضلي في ضبط النظام. ابتسمت (ان هي الا فرصة اكتسب ثقتهم.. ورب رمية من غير رام).

قلت له:

– اننا بتنا نتوق الى الأامن في وطننا.

قال:

– هذا حق، وبأيديكم تصنعونه.

قلت:

– آمل ذلك .. وسنصنعه ما وسعنا الجهد.

قال:

– أشكرك على تعاونك.. وهل من خدمات نقدمها لك.؟

عرفت أن هذا ايذان بانتهاء الزيارة وسخرت من الخدمة التي ظننوني فعلتها لهم، نهضت.. ثم خرجت دون استئذان.

* * *

18. حينما استدعيت لمقابلة الحاكم العسكري مرة اخرى.. سألني ماذا أعني بكلمة لا نغادر فأجبته ببرود ان الكلمة تعني ان نبقى.

وبلهجة ممثل قال: خيبت أملي فيك.

ابتسمت وقلت:

– أملي أن اعيش على أرضي بسلام.

ضاع اصطناع الود من وجهة وصرخ:

– هذه ليست ارضك.. هذا مخيم لاجئين وانت لا تملك الارض.

وتساءلت ساخرا:

– اذن استعيدني الى أرضي.؟

قال:

سترحلون بالقوة.

– أنت تنذر.؟

ضحك وقال:

– عرضت عليك صداقتي.. ولكنك رفضتها..

قلت ضاحكا:

وأنا بمودة اقول لك لن نرحل.

* * *

19. بدأ (علي) حديثه لن نقبل الترحيل.. ولتسكن كل عائليتن في منزل واحد.. فليهدموا الشارع ولكن هناك شوارع أخرى.. "لن نرحل" الفكرة كانت جيدة.. ولكن أن تزيد "السردين" ازدحاما في حجرات مخيم اللاجئين التي اعتادت ألاا تقل سعة الحجرة فيها عن خمسة افراد، يصبح هذا أمراً غير محتمل.. خاصة إذا كان الانسان لا يعرف متى ينتهي ما بنا.

تحدث علي.. وآخرون.. ثم اتفقنا على تنفيذ اقتراح علي، وكان هناك اتفاق آخر.

* * *

20. من حسن حظنا أن بيت ابنة عمي التي استضفناها– لا يقع في الشارع الجنوبي المراد نسفه، فانتقلنا اليه.

وفي منتصف الليل، استيقظت، فأفاقت زوجتي.. طبعت على شفتيها قبلة واحتضنتها وودت لو تمكنت أن افعل اكثر من ذلك.. وأخذ طفلي الصغير في البكاء واستيقظ الاطفال الآخرون.

قالت زوجتي:

– أخارج الآن.؟

هززت رأسي.

– أفي هذا الوقت.؟

– في هذا الوقت

– خطر عليك.

وأخذت تشهق، حاولت ان أكفكف دموعها، وارتمت على صدري وهي تشهق.. وتقول.. لا تتركنا.. لا تتركنا..

في مثل لحظات كهذه، قد يضع الانسان واجبه في كف، ومشاعره الانسانية في كف آخر.. ولكني تساءلت أليس واجبي هو مشاعر انسانية أيضا.؟

قبلت أطفالي كلهم.. وكذلك زوجتي.. ثم وقفت بالباب.. نظرت الى الاطفال.. خطوت خطوتين.. ثم رجعت الى زوجتي وكانت تشهق وقلت لها:

– خذي بالك من نفسك ومن الاولاد.

ثم اصبح نشيجها متصلا. وهي تحاول ان تردد كلماتها:

– لا تذهب.. لا تذهب!

* * *

21. بعد أن فرغت من مهمتي.. عدت متسللا إلى البيت وكانت زوجتي تقبع في زاوية وهي تبكي.. وقالت في شبه جنون.

– انك تعود. تعود. تعود.!!

* * *

22. أشرق الصباح وكان مخيم جباليا يستيقظ كعادته مبكرا.. وزعت منشورات تطالب بقتل الخائن " أبو عليان" وتحذّر أي متعاون مع العدو بأنه سيلقى نفس المصير.

حينما اقتربت الساعة الثامنة، كان معظم أهالي (جباليا) قد ابتعدوا عن الشارع الجنوبي وكان "علي" يحمل مذياعا صغيرا يترقب نشرة اخبارية، وحوله بعض الشيوخ والنساء والاطفال.

وأعلنت الساعة الثامنة.. ودوى انفجار مروع أعقبه سلسلة من الانفجارات، غطت على صوت المذياع، وكل نشرات الاخبار.

لم يكن لأهل المخيم شاغل سوى الحديث عن اجرأ عملية فدائية جرت في جباليا: قتل خائن.. نسف السكة الحديدية.. نسف الجرافات.. وأخذوا يتحدثون عن الانتقام لسامي وللشارع الجنوبي.

ابتدأ الاعداء في تجميع المواطنين لاكتشاف الفعلة المخربين حسب تعبيرهم، لم أكن وحيداً ، مئات الشيوخ والطلبة.. جمعونا في ساحة كبيرة.. عمليات الفرز ابقت منا ثلاثين، بيننا أربع طالبات.. وأخذن يبكين وينتحبن.

قلت في نفسي.. مزيد من الاضطهاد يساوي مزيدا من الثورة، معادلة لا أعرف قائلها لكنها حقيقة.

لم يقبض على الذين نفذوا العملية باستثناء واحد فقط، هو أنا، مررنا جميعا على الحاكم العسكري.

قال لي:

– ها انت لا تغادر..

فلم اتفوه بحرف.

ثم تساءل:

– اهكذا يفعل الذي لا يغادر..؟

سألت:

– عن أي شيء تتحدث.؟

ابتسم وقال:

– تدّعي الغباوة.؟

قلت باصرار:

– عن أي شيء تتحدث؟

جابني:

– الاغتيال.. التدمير.. الانفجارات.

– وما دخلي في مثل هذه الامور.. إني افضل الراحة الحقيقية.

وسأل كثيرا.. ولم يخطر ببالي انه سيفرج عني بهذه السهولة.

* * *

23. عاد زوج ابنة عمي وكانت "فيروز" تغني (يا جسر الاحزان انا سميتك جسر العودة). عانقته، سلم على زوجته، كانت ملهوفة عليه. آثرت وزوجتي الانسحاب، ولكنه استدرك موقفنا وقال: أريدك.

خلونا لبضة دقائق.. وعرفت منه ان الاتهام في العملية قد الصق بفتاة وشابين.. وان الفتاة قد اختل عقلها.. وقد اخرجوا ثلاثة ممن اعتقلوا اصيبوا بكسور متنوعة.

تذكرت انني طليق واتمتع بالعافية.

وتساءلت لماذا يقلى القبض على الابرياء.!

لماذا يلقى القبض على الابرياء.!

* * *

24. لماذا يدفعون الثمن.؟

الانهم لا يفعلون شيئا.؟ ووجدت صوتا داخليا يجيب نعم.. نعم.. فأحسست براحة ضمير.

* * *

حدثني زوج ابنة عمي عن بريء كان سجينا معه في أحد سجون العدو، وكيف تغيرت روحه المعنوية بعد أسابيع من اعتقاله، وكيف توثبت روحه للنضال والثورة.

ثم قال لي وكأنه تذكر أمرا خطيرا.

- – ياه نسيت.

سألت بلهفة:

– نسيت ماذا.؟

قال:

- – لك رسالة من السجن.

قلت وقد شعرت براحة:

– من سجّان.؟

- – لا ، من مسجون .

– اذن من محمد.

- – لا من رأفت.

– رأفت.. رأفت من.؟

- – رأفت الفيومي.

ولم يخطر بذهني ان يكون رأفت الفيومي مسجونا.. وكأن ابن عمي اراد ان يريحني فقال.

- – نعم.. رأفت.. كان من ضمن القوات الخاصة.. أُسر اثناء اشتراكه في عمليات حرب الاستنزاف.

– ما أحواله.؟

- – ككل المساجين. بدأ يفقد الاحساس بطرفه الايسر، هناك خوف من شلل وابلغني ان اقول لك (انه وقع فعلا في أسر غزة.. ولكن ليس أسر بضائعها) وهززت رأسي وكنت اتمتم: "أسر اعداء غزة".

.. كان ذا حس قومي اصيل.. يفوق روح الدعابة المصرية لديه ، ها انك يا رأفت أخيرا.. تؤدي ضريبة الوطن. لقد ظنك كثيرون انك مهرت في اطلاق النكتة وانك لا تجيد التحدث في أي امر جاد.

* * *

26. حملت زوجتي إلى الطبيب، وحينما نظر اليها، رمقني بنظرة عتاب قاسية، أنيميا حادة، ونزيف.. حالتها خطرة..

ماذا أقول للطبيب.. هل أقول له أن لها ثلاثة اطفال وهم بحاجة اليها.؟

لا .. إني بحاجة اليها.. أواه يا زوجتي، يا رفيقة العمر.. إنك بحاجة الى الحياة كما أطفالك بحاجة اليك.. لأنك أنت تهبين الحياة لأطفالك ولزوجك. بحاجة الى دم كاجراء أولي لاسعافها. عدت الى البيت، نقلتها إلى المستشفى وكان أطفالي يصرخون.. امي.. امي..

ابنة عمي وزوجها سألاني عنها.. كنت أتحدث وغصة في الحلق.. عرضت ابنة عمي ان تقيم معها لرعايتها وفعلت .

* * *

27. زرت زوجتي.. وكانت قد تحسنت قليلا.. وقلت لها:

– اشتريت للاطفال ملابس جديدة ولك ثوبا رائعا.. ابتسمت زوجتي بوهن، وكنت أمسك كفها، وقالت وهي تبكي:

– اشتريت لي ثوبا.. لي انا.. انا انتهيت..

كفكفت دموعها وقلت لها:

– نعم لك وستعودين يا حبيبتي إلى بيتك واطفالك.

سألتني اذا كان بالامكان رؤية الأطفال، طلبت إذنا من الطبيب فوافق ، وحينما زرت زوجتي وأطفالها معي.. ظل الطفل الصغير يبكي متشبثا بأمه، فبكت طويلا.

* * *

28. التقيت احد الرفاق، واخبرني انه ليس لي الآن من مهمات تنظيمية أو عملية، وعلي أن أهتم بزوجتي وأطفالي.. وأعطاني مبلغا من المال..

فكّرتُ أن أردّه، ولكني تراجعت وأحسّ بحرجي وقال:

– الثورة لا تتفضل عليك.. فأنت أعطيتها حياتك وأسرتك وذراعك.

أطفالي يسألون عن امهم وعن أشياء كثيرة.

وكنت أحدثهم ويطربون كثيرا ، حينما أحكي لهم قصص أبو زيد الهلالي وعنترة والشاطر حسن، وحكيت لهم عن عز الدين القسام وعبدالقادر الحسيني.

وعن الاشبال الذين يدربهم الفدائيون وعن أغنياتهم التي كانوا يغنونها (فدائي ما يخاف الموت– وهو الموت كم مرة).

وكانوا يصرخون فرحين حينما اقول لهم ان الفدائي اطلق مسدسه وقتل الغاصب وكانت أغلى امانيهم أن يصبحوا فدائيين.

وكنت ابتسم.. واشعر بالاعتزاز، فأبنائي ولدوا في حضن الارض وللارض يخلصون.

* * *

29. أيتها العدالة السماوية أين أنت.. فقدت ذراعي وفقدت ابي.. وفقدت رفاقا كثرين.. ولكن ان افقد زوجتي.

اخذت ابكي.. لا لم تموتي .. لا لم تموتي.. جاءني الرفاق يعزون ويواسون. انا لا اسأل عن الاطفال.. ولا عن نفسي.. ولكني أتساءل عن الموت والحياة.

– كل نفس ذائقة الموت.

– الموت قرين الحياة.

– انت تعمل كل يوم في أحضانه.؟

– اذن لماذا لا أموت.

تموت.. أنا افكر في الموت.. ارادة الحياة.. وارادة الصمود التي كنت اتحدث عنها.. القدس.. الفتيات الجميلات اللواتي شاهدناهن في القدس.. العجوز

الذي تحدث عن الوطن.. سامي الذي استشهد.. الفتيات المعتقلات، أبو عليان الذي نفذت فيه الاعدام.. رأفت الفيومي السجين.

ورسالة من صديقي من الكويت.. دعوات الصمود. الحاكم العسكري.. الشارع الجنوبي.. هذه الاشياء والاشياء الاخرى..

هل تنتصر ارادة الموت.؟

أمي.. أمي وانا اهتف اواه حبيبتي.. افتقدك.. كما ذراعي افتقدته..

أخذ طفلي الصغير يجذب شعيرات ذقني الطويلة وكان يضحك.. اما طفلي الاوسط فقد سأل:

– لماذا ماتت امي.؟

لم أجبه.

سأل:

– هل قتلها الاعداء.؟

هززت رأسي وقلت في نفسي.. نعم قتلوها صبرا.. او جوعا.. او كمدا بأنيميا حادة.. كحال معظم اللاجئين.

لم أنم منذ يومين.. الاجهاد.. والأطفال يصرخون.

الطفل الاكبر.. كان يقبع في ركن البيت.. لم ينبس ببنت شفة.. ترامى الى مسامعنا.. أصوات طلقات نارية.

قفز ابني الاكبر وصاح فرحا:

– فدائيون.. فدائيون في جباليا..

ولحظتها.. ابتسمت.. قبلت ابني.. ولم اعد اسأل نفسي عن معنى الحياة والموت.

آب (اغسطس) 1973

هل يفرح مجاهد ؟!

ذلك الكابوس المفزع.. طاخ.. طاخ.. الجبين المصفوع، ونداءات متكررة:

من س الى عاصم، بانتظار ردكم.

يعودني هذا الكابوس، فترتد الي كل ذكريات تاريخ قديم مرّ بي. منذ ذلك التاريخ، كنتُ أستيقظ مفزوعا.. وسميرة تنظر إليّ باشفاق وتتساءل:

"ما بك؟

كانت السماء يومها ملتهبة، طلقات مدافع، وطائرات تتهاوى، وجنود يصرخون.

عادل وجهه ملطخ بالدماء، وبغباء سألته: ما بك . ؟

كانت شفتاه تلفظان أحرفا أخيرة.."

– ما بك يا مجاهد.؟ كنت تصرخ، وتهلوس وتنطق بكلمات غير مترابطة: الدم، التراب، عادل، قف.. ما بك يا مجاهد.؟

– لا شيء.. لا شيء.

"يأتيني النوم ولا أنام.. أتعقبه ولكنه ينأى عني.. أبحث عن لذة للحياة.. ما قيمتها.؟"

تساءلت بصوت عال.. كنت أظن أنني أُناجي نفسي.

قالت سميرة:

– أتسألني.؟

– لا .. لا أقصد ذلك.

"الموت راحة كبرى للخاطئين، والمعذبين والقانعين بالظلم.. استدراكات لمعان فلسفية ابحث عنها، ماذا يجدي الموت.؟ وماذا تنفع الحياة.؟"

* * *

خرجت من البيت، والتقيت مجموعة من الأصحاب. كنا نجلس في مقهى صغير وسط المدينة الكبيرة.. تمر النسوة أصنافا من أمام أعيننا، التي تلتهم كل شيء.

وقال أحدنا:

– هؤلاء النسوة يثرن حتى الانبياء.

لم يعقب أحد.

قال آخر بانفعال وضرب بقبضته على الطاولة:

– تتجاهلون كل شيء.. كل شيء..؟

لم يجرؤ أحدنا على اجابته.

في تلك الحرب الفائتة اللعينة، كنا قد تعلقنا بذلك الشيء الذي أسميناه القتال، كنت ضابطا، أذكر الحماس الذي عشناه، حيث تتدفق مشاعر الجميع مع الحرب ومع الامل في النصر.

أذكر تلك الحرب اللعينة، طاخ.. طاخ؟؟ نداءات متكررة، لم أفهم منها شيئا آنذاك.

وكانت السماء قد غطت بالطائرات وبالموت.. ومات عادل!!

"– ما بك.؟

... ...

... ...

... ...

– انكم تتجاهلون كل شيء.

... ..."

ها نحن نعود مع الترانزستور مرة أخرى.. نتابع أنباء القتال وحين التقينا بالمقهى لم أحادثهم.. كنت أنظر إلى النساء بلا شهوة ولكني أنظر.

امرأتي تقول:

– سننتصر.

أستمع إلى الأحاديث في الشارع، من بائعي الفجل وسائقي السيارات وبوابي العمارات.. جميعهم يثرثرون، ولكن بلا شهية استمع.

– استاذ : لك خبرة قديمة في المعركة.. كنت في سلاح المدرعات. السنا نحقق انتصارات.؟

"بماذا أجيبهم.؟

استمع إلى نداءات في الاذاعة.. أطارد محطات الاذاعات.. هنا دمشق.. هنا القاهرة.. هنا مونت كارلو.. هنا لندن..

بيان من الناطق العسكري رقم....."

– .....

– هل تظن ان البلاغات العسكرية صحيحة.

– .....

يسألون ويجيبون.. ثرثرة بلا نهاية.

عُدتّ إلى المنزل وكان أحد أصحابي ينادي: مجاهد مجاهد..

امرأتي تسأل:

– ما بك.؟

– .....

كنت أحتضن الترانزستور، وأفتّش عن محطات جديدة.

بلاغ عسكري، أسقطنا للعدو "....." طائرة..

- ما بك يا مجاهد.؟ انهم يأخذون بثأر عادل، لماذا لا تفرح.؟

– الفرح مدينة كبيرة ضاع فيها فلاّح.. من أين يأتيني الفرح يا سميرة.؟

- أمتشائم أنت.؟!

– لا. المعركة طويلة.. المهم أن تستمر.. أن تواصل فيأتيني الفرح.

- اذن لماذا لا تفرح.؟!

– انني أتفرج على من يصنعون الفرح.. أليس ذلك محزنا.؟

"هذا الترانزستور اللعين الذي أحمله، سهم يمزق أحشائي.....".

- اذن لماذا لا تفرح.؟ ما الذي يعيقك عن الفرح قل لي.؟

بنرفزة قلت:

– بربك كفي يا امرأة عن الثرثرة، كيف أفرح وأنا أتفرج.؟

أهي الحرب؟

نعم حرب حقيقية..

مدرعات ودبابات تتقدم. خط بارليف ينهار.. مراسلو وكالات الأنباء يدخلون مع الجيش الظافر سيناء.

افتتاح مكاتب للتطوع.

" أيها الملازم الهارب من معركتك.. أين دبابتك... ها إنك تعيش مع الترانزستور، وفي المقهى يقول أحدهم، بعد أن تذكّروا أن هناك حربا:

"انكم تتجاهلون كل شيء".

في القلوب، تدفن كل الاشياء المرة والحلوة، ونحن دفنا في قلوبنا التراب، والوطن والكرامة، وها هو الرصاص ينبش عليها بسكين حادة".

الناس في بلادي هنا وهناك، يبتسمون. وأحيانا يرقصون، وقليلا ما يعبسون. ولا شيء يفعلونه سوى الاستماع لذلك الاختراع اللعين، في المقاهي في الشوارع في السيارات وفي كل مكان.

– ما بك.؟

"حتى أنتم تسألونني.؟

هذا الجهاز اللعين بيدي قدر مربوط به عمري.؟

وماذا أنتم فاعلون.؟

هل أسأل أحدكم ما به.؟"

بلهجة خطابية هتف احدنا:

– اين دور الجماهير في المعركة؟ اين دورنا.؟

واضاف اخر:

– معركتنا هي معركة الجماهير.

قلت:

– الآن.. يتفرجون.. يستمعون للمذياع.. يقبلون صفحات الجرائد.. مثلك ومثلي.. وابتسمت بألم:

– أتعتقد بأننا سننتصر.؟

"ومن أنا حتى أجيب على هذا السؤال الضخم:".

– المهم أن نواصل. أن نواصل.. الاستمرار يعني النصر.

علقت في ذاكرتي تلك اللحظات القديمة من الحرب اللعينة في حزيران.. قصف شديد.. نهنىء أنفسنا بالقتال وبالنصر.

يومها كنا نتلقّى الصفعة، ونملك الحماس والأمل.. وهذا في حد ذاته شيء رائع.. بلا استثناءات، كان الشارع يهتف وضجيج المذياع يغمره، ومات عادل..!

جرجرنا أنفسنا، حفاة عراة.. وتركنا التراب، وسمعنا من الذين قادونا إلى الحرب بأننا هُزمنا.

سنوات مرت.. انساب الخدر في أعماق النفس.. ها نحن نتفرج مرة أخرى.. ونحن بحاجة إلى الموت كي نخلص من الحياة الجوفاء التي عشناها.

- الحرب.. الحر.. أنت لا تصدق.. اسمع يا مجاهد.

– بالله أبعدوا هذا الجهاز عني إنه يكذب، دوما يكذب.

- الدماء تخضب ثرى سيناء يا مجاهد.. تخضب ثرى الجولان..

"نداءات حرب حقيقية.. انزع ثوبك الذي ارتديته منذ هزيمة حزيران يا مجاهد".

– إنكم تتجاهلون كل شيء.. كل شيء.

"الناس مبتهجون" وهم يثرثون ويتساءلون. الطائرات تتساقط. لا فانتوم ولا كلام فارغ.. صواريخ سام عظيمة.. الجنود مغاوير شهادة لله.. هل ستدخل الأردن المعركة؟. لا أظن، جبهة لبنان مهمة، الجيوش العربية تزحف.؟

يا سلام ما أحلى النصر.! لأول مرة أفتخر لأنني عربي.

- يا مجاهد هل سمعت ما يقوله الناس؟!

– ماذا يقولون.؟

- ماذا بك.؟. انت غير طبيعي؟.

وقهقة صاحبي ثم تابع:

كل الناس استردوا ذواتهم في هذه الحرب. إلا أنت تشرد بعيدا..! بماذا تفكر ؟ الجنود يقاتلون وينتصرون ونحن نسمع أخبارهم المطمئنة.

"كفاه الله خيرا، صاحبي هذا ؟ الجنود يقاتلون وينتصرون ، ولكنه نسي كلمة مهمة بأنهم يموتون ايضا:.

قلت له:

– أنا وأنت نسمع الأخبار المطمئنة.. هه.. هلا قلت لي لماذا لا تصنع أنت الخبر، بدلا من أن تسمعه.؟ لماذا أنت المتفرج.

- أنا ليست مسؤوليتي.. قدّمت ما أستطيعه، تبرعت بالدم.. وجمعت تبرعات..

" إنه لا يدري، ما الفرق بين التبرع والضريبة.. هنا يكمن الفرق، بين ما أراه وما يراه..."

قلت:

– لكن هذا لا يكفي..!

- لكنهم ليسوا بحاجة الى جنود...!

"وهنا مسألة اختلاف أخرى.. هل تتحقق الراحة الكبرى، حينما يعفينا الآخرون من المسؤولية.؟؟ هل تتحق.؟ حتى باعفائنا منها".

أم أنّ لنا مسؤولية ذاتيةٌ لا تنتهي..

أحاول أنْ أُفهمه..

– الموت أنت لا تدركه.. لم تشاهده.. الجند الآن يعيشون، ويذوقون. مات عادل بين يديّ.. وكان ذلك شيئا سهلا، في ساحة القتال..

من أجلك كان ذلك، ومن أجلي ومن أجل الجميع، والجميع من أجل الوطن.. ليس ثرثرة ما أقول.. ولكن ذلك استئنافا.؟

- استئناف!! استئناف ماذا.؟

– الحياة.. الحياة من جديد..

كان الوقت ظهرا.. مررت عنهم، وكانوا على ذات المقهى والنساء والأطفال والشيوخ، الترانزستور بين أيديهم.. يمرون.. ورغبة أكيدة في متابعة ما يجري لدى الجميع..

طرقت الباب.. كانت زوجتي قد أقبلت مبتسمة.!

- أسمعت؟ أخبار القتال رائعة.. نحقق انتصارات مدهشة.. اسمترارنا سوف يفني العدو.

"هي متفائلة. ولها الحق في ذلك، فالعربي لأول مرة منذ قرون طويلة يمتطي صهوة حصانه ويحمل سيفه وترسه، ويمضي في فتوحاته.."

– يفنيهم؟! لو حشدنا كل الطاقات.. أنت وأنا وكل الناس، لحظتها فقط، نحرز كل الانتصارات.

- أنت تعاني من أزمة ضمير.

أجابتني.

– قد يكون ذلك.. ولعلها أزمة واجب.

- الفدائيون يقصفون المستعمرات.. إنهم يوجعون العدو..

"وها هي تنبش جرحا آخر.. الفدائيون ذلك الأمل الذي حاولنا اغتياله مرات.. ها هو ينمو من جديد.. وسيظل هو الحضن الدافىء لكل آمالنا".

وتقول زوجتي: حسن ابن جيراننا استشهد في عملية أخيرة فأصرّ أصحابه ان يحضروا جثته برغم كل المخاطر التي صادفوها.

"ها انت ايها الطفل تصبح رجلا.. حسن كنا ندلعك.., وأصبحت رجلا حقيقا يعرف كيف يُعمّد الأرض بالدم.. هل رأيت تراب وطنك قبل هذه العملية.. وُلدتَ بعيدا.. ولكن شيئا ما ظَلّ يكبر معك كلما تكبر.. الوطن.."

- إنك يا مجاهد.. لا تحادثني.. تسرح بعيدا وأنا أحدّثك، وأنت مشغول عني.. ذهبت اليوم للتطوع.. قابلت هناء زميلتي في الدراسة.. وقد تطوعت للدفاع المدني.. ووعدتني بزيارة مع زوجها هذه الليلة.. طبعا سننتظرهما ، وهي لطيفة..

– .....

- اواه ما اكول هذا اللسان الذي تتحدثين له، لا أطيق ان ارى وجهي وليس وجوه الآخرين.. ثرثري كما تشائين.. سنف اخرج الى الجحيم انت وزوارك.

– ستنتظر، اليس كذلك.؟

– .....

– عيب ان يأتوا ولا يجدوك.

– عيب .. عيب عن أي شيء تتحدثين.؟!

طرق الباب.. افتحي يا سميرة.. ها هم قد جاءوا..

"جاءوا..! ولكن لا أطيق الثرثرة ، والحديث عن المعركة ، وتحليل الموقف العسكري لها كخبراء استراتيجيين سياسيين.؟"

دخلوا وكنت أسمع ترحيب زوجتي.

– أهلا أهلا هناء ، أهلا أستاذ سعيد. إنه بالداخل.. يسمع الاخبار.. تفضلوا..

قمت لأستقبلهم.

– أهلا سعيد. أهلا هناء.. سوف استأذن معذرة لقد جاءني هاتف أمر طاريء.. استمعوا لنشرة الاخبار، سأعود سريعا., أنتم في بيتكم لا تكلفة بين الأخوان.. أمر طارىء.. عفوا، سأعود سريعا.. كانت زوجتي تقف كالبلهاء وهي تستغرب مني هذا التصرف..

"ما الذي فعلته يا مجاهد تهرب من ضيوفك– قلة ذوق. قلت ستعود سريعا، ولكنك تهرب ، ولا تدري أين تذهب.. تهرب من المذياع، وحتى من الأأصدقاء".

فكرت لماذا لا أتصل بأبي نضال.. ذلك الصديق الفدائي.. كنت نسيته.؟ بحماسه وايمانه وعمله سينسيني أشياء كثيرة.. وأخباره ستكون بالتأكيد طازجة.. فوق هذا يمكن ان أقدم لهم خدمة كعسكري سابق ولي خبرة، نعم لي خبرة.

السير إلى مقر الفدائيين، يحتاج إلى نصف ساعة.. ستكون دقائق للتفكير، للخلو الى النفس من غير مذياع ، ومن غير ثرثرة، ومن غير تساؤلات.

واصلت سيري إلى مقر الفدائيين..

هتف أحد الحراس.

– قف.

وتوقفت..

– من أنت.؟!

– أنا . أنا.. مجاهد .. أريد ابا نضال.

اجتزت بعد ذلك كمائن عديدة، حتى وصلت الباب.. كان المقر كخلية نحل.

– أستاذ بعد اذنك، ماذا تريد.؟

– أنا مجاهد.. مجاهد.. قل لأبي نضال أن مجاهد بالباب.

– أبو نضال مشغول.

– سأنتظره..

قبل ان يرد علي ذلك الحارس، كان ابو نضال قد خرج من حجرته مسرعا.. كان سلاحه يتدلى من على كتفه، وباد عليه الانهاك والانهماك في العمل نظر وهجم واستغرب.

قال:

– أنت.. أخيرا جئت.. واحتضنني.. وكان المذياع ينقل آخر الاخبار.

17 اكتوبر– تشرين اول 1973

محاكمة مديد القامة

سأكون ممتنا سيدي، إذا استمعت لي.. سأروي قصتي لك.. كان ذلك المتحدث مديد القامة، ضخم الجثة، في عينيه لمعان غريب يرتدي بزة زرقاء بلون السماء.

ولكن ذلك الجالس في مقعده الوثير، كان يمسك غليونه بيده، وينفث دخانه بشموخ، فينداح الدخان في انحاء الغرفة، باعثا بها ذلك الشذا غير المحبب لدى الذين لا يدخنون.

وتصور مديد القامة ان السيد سيستمع له.. وحدث نفسه: ها هو يحقق معي للمرة الرابعة.. المحقق الاول قال عني إنني بريء.. والثاني حكم لي بالبراءة، والثالث سخر من اصرار السيد على إدانتي دون مبررات. ماذا لو اقفلت عليه الحجرة وانهلت عليه ضربا.. آه لو أوجعته.!!

قال في نفسه: لن يحتمل مني اكثر من لكمة واحدة، إن طوله طول شبر، وأعرف أن يستمد سلطانه من هذا الكرسي الهزاز الذي يجلس عليه..

وفكر: لو قلت له إنني اعرف كثيرا عن حياته الخاصة، هل سيكون ذلك مبررا لأن يزجني في السجن أم أنه سيخفف التحقيق معي.؟!

وندت عنه ابتسامة.. لم يفهم السيد معناها إذ بادره قائلا:

تبتسم، تستدر عطفي، لاستمع تبريراتكم، أنت خطر على الامن.

بسمة مديد القامة، لو درى السيد معناها، لانتفض من مقامه العالي، وطلب زبانيته ليصفعوا مديد القامة ويذيقونه مرّ العذاب.

حينما ابتسم، تذكر مديد القامة ذلك المنظر الفاضح الذي عاشه مع زوجة السيد (؟) آه ماذا يقول.؟ وندت عنه ضحكة "ها هم يحاولون اصلاح المجتمع- من وجهة نظرهم وبيوتهم خربة.. نفوسهم بائرة.." قال ذلك في نفسه.

امسك السيد بيده فتاحة الكتب، كانت عبارة عن نصل لامع، استله من جراب جلدي صغير ليلو بها.

تخيل مديد القامة نفسه أمام السياف.. ها هو السياف يقطع رأسه فصرخ، طرب السيد وقال:

– ما بك؟! كنت زعيما قوميا.. تنظم المظاهرات. وتطالب باسقاط الحكومة.. تظن نفسك تعبّر عن الشعب، أين الشعب الذي تمثله يا جبان.؟

استدرك مديد القامة موقفه.. لا بد أن يكون شجاعا.. الشجاعة ليست فنا.. هي نوع من الصبر في مواجهة أُناس مثلنا قد يكونون اقل شجاعة. ابتلع طويل القامة ريقه وقال بصوت عال:

– يا سيدي تعرف أنني بريء.. وأني لست معهم. أنا لست منهم، المحققون الثلاثة أكدوا لك براءتي فلماذا تصر أنت على ادانتي.؟

– ادانتك.. انا لا ابحث عن ادانتك، فهي أمر مفروغ منها، ابحث عن اعترافك نعم اعترافك.

– يا سيدي بماذا أعترف.؟

قهقه السيد:

– اعترف مثلما اعترف الآخرون.

جال في ذهن مديد القامة ، أن اعترافات الآخرين مخترعات وهمية.. تلفيقات كاذبة، ولكن، هل يجدر برجل مثله ان يفعل ذلك ؟

أخذ مديد القامة في التقدم باتجاه السيد واقترب كثيرا منه..

السيد قال: لا تقترب..

فافترب اكثر.

السيد قال: قف لا تقترب.

واقترب اكثر.

كان الانفعال واضحا على محيا مديد القامة، الذي وقف بجوار المكتب تماما ، ثم سحب الكرسي ، وجلس قبالة السيد تماما، ثم ضرب المكتب بقبضة يده وصرخ محتدا في وجه السيد:

– قلت لك سأكون ممتنا سيدي لو استمعت الى قصتي.. لكنك آثرت عدم الاصغاء.. محققون ثلاثة، الواحد منهم يجلس ساعات طويلة يسأل ويسأل ثم يضحك أخيرا لأنه يبحث عن لا شيء.. واحد منهم نصحني أن اعترف بأي شيء، ذلك لأنك مصمم على إدانتي، اعتذر كل محقق لي بأدب.. أما انت! تريد مني أن أعترف.. اعترف .. اعترف.. لا تجيد سوى هذه الكلمة اللعينة.. لماذا أعترف.. أأعترف عن أهلي وأصحابي ورفاقي.؟ أأعترف عنك.؟ نعم عنك.!

ارتعش السيد وظن أن مديد القامة ينوي أن يورطه في قضية سياسية، لكن الأمر ليس سهلا كما يظن.. كان في يوم ما في صفوفهم.. ولكنه تركهم منذ مدة.. تلك قضية مكشوفة، والجميع يعرفونها.

فقال وهو يتمالك أعصابه:

– هذا وتر لن تجيد العزف عليه، لن يصدقك أحد فأنا موثوق بي.

– موثوق بك.؟! هل حدثتك عن الثقة.؟ إنني أُحدثك عن الاعتراف.. عن أشياء تعرفها، واخرى لا تعرفها.. أليس هذا ما تريده.؟

– بلا فلسفات.. انت تعلم جيدا، ماذا نريد منك..

وببرود أعصاب قال مديد القامة:

– سيدي هل أروي لك قصتي.؟!

– ثقيل الظل انت.. أعرفك وأعرف أباك وجد جدك إرو لي المعلومات وإلا ..! فأنت أعلم الناس بمصير "حسان".

تذكر مديد القامة حسانا زميله في العمل.. الذي شكى مرة وقال:

إن الوظيفة زفت ، وإن الروتين يقتل الانسان، ويسرق الوقت وينهب البلاد، وشتم الرشاوي والمحسوبية، فكان مصيره السجن. لم يكن السجن أمرا غريبا عند اهل تلك المدينة.. فأبناؤها اعتادوا دخوله لأن من يمس الذات العلية، من يمس الذات العلية، من يمس الحكومة بكلمة نقد، من يطالب بالوحدة أو التحرير أو إطعام الجياع، سيدخله زائرا للتحقيق او ضيفا للمساجين.

ولكن ما حصل مع حسان، كان شيئا آخر، لعله حظه السيء بعد شكوى حسان المريرة تلك، عمت مظاهرات في ارجاء المدينة أوكانت أنوف السلطة تشم وقرر احدها، ان حسانا هو احد قادة المظاهرات وكانت قرينته في ذلك، حديث حسان اثناء العمل.

مات حسان في غرفة التعذيب ، بعد ان سحبوا منه اعترافات مغلوطة عن مديد القامة، القصد منه أن ينال جسد حسان المرهق بعض الراحة من التعذيب، فكان حظ مديد القامة ان يكون رهن التحقيق بناء على ذلك الاعتراف الكاذب ومات حسان.؟!

حينما تذكر مديد القامة حسانا، شتمه ولعن والديه ولم يترحم عليه كما جرت العادة في بلده، وقال في نفسه تموت يا حسان الكب وتورثني العذاب "يلعنك ويلعن ابوك".

كان يتمتم ذلك بكلمات بانت على شفتيه المضطربتين.

فقال السيد:

– لكنك تعرف أن لا صلة لي بحسان، قال حسان ذلك ليرتاح مما أذقتموه من عذاب.

فأجابه السيد:

– ولعلك انت أيضا بحاجة للاعتراف، وللراحة من العذاب.

– لماذا لا تريد أن تسمع قصتي؟! انا لا علم لي بالسياسة يعرفني الجميع. لا أهتم الا بنفسي..

– كلكم هكذا .. كل الخبثاء يظهرون ما لا يبطنون.. أتودّ ان تضحك علي.. تحاولون أن تتقربوا من الشعب وتصبحون أبطالا على اكتافه، والآن تظهر بمظهر الساذج..! وأخذ يقهقه.

ابتدأ مديد القامة يسترجع كلمات كثيرة عن الشعب.. الجماهير.. الوطن.. الحرية.. الاشتراكية.. الوحدة.. الثورة. تذكر المظاهرات الأخيرة، رأى فقراء شعبه وهم يصرخون في وجه الظلم. كان يرى الجوع في عيونهم.. وكان يرى الأمل في حماسهم.

كان يبتسم، كان سعيدا بهم، ولكن سعادته لم تكن أبدا مشاركة، حتى عندما اصطدمت عيناه بعيني "الاستاذ س" الذي كان في المظاهرة هرب بعيدا ليتحاشاه.. والآن فقط بدأ يشعر كم خسر لأنه لم يكن معهم.

قال للسيد:

– أنت تعلم أنني لم أكن معهم.. لم أشترك في المظاهرة.

أجابه السيد ضاحكا:

– كل القادة يفعلون ذلك.. كلكم تتسترون. ما جدوى ظهوركم بين الجماهير، ما دام صبيانكم يقومون بنفس الدور..؟ ها قل لي ..!! هل تحرقون وجوهكم وأوراقكم.؟ لعبة قديمة مكشوفة.

حاول مديد القامة أن يستجمع صورا عديدة في مخيلته، لمظاهرات الفقراء.... للاستاذ "س" الذي حدثه عن الثورة، عن الوحدة، عن الاشتراكية، عن الحرية، التي ربطها بالارض والانسان.

كان يستمع إليه يومها باعجاب، ولكن لم تك لديه أية رغبة في المشاركة، واتفقا ان يكون هناك لقاء اخر، لكنه تهرب من الأستاذ (س)، وتحاشى اللقاء لئلا يلتزم بأي عمل..

كانت حياة مديد القامة فارغة تماما.. كان يقرأ ولكن ليس كثيرا.. كان يقرأ الصحف اليومية.. وكان اقل الناس مبالاة بكل ما تحمله من أخبار.. كان يحرص على حضور ثلاثة أفلام سينمائية في الاسبوع، كان يسهر مع أصحابه ثلاثة أيام لوقت متأخر، يلعبون الورق والشطرنج والنرد ويتسامرون.. وكان يخصص يوما في الاسبوع لعشيقته. كان فارغا كما قال عنه الاستاذ "س" ولكن الاستاذ "س" كان يتصور أن مديد القامة خامة جيدة..

كان مديد القامة يقضي وقته بعد الظهر في التسكع وتعقب النساء ومحاولة اصطيادهن.

ذات يوم في السوق رأى امرأة تضج بالأنوثة، تابعها ونظر اليها، واختلس منها ابتسامة وأخذ يتعقبها يوما وراء يوم، وأدرك بعد مدة خطورة متابعة امرأة يكون زوجها السيد، لكنه رأى ذلك لعبة مُسلّية. لقد سمع عما يفعله السيد بالكثير من زملاء الصبا والدراسة والجيران والعمل، ولعله حينما عرف زوجة من تكون.؟ آثر ان ينتقم لهم بهذا الاسلوب، لعله خاطىء، لكن مديد القامة لم يفكّر بالامر كثيرا..

حينما تعرف عليها قلّص أيام لقائه بأصدقائه يوما وكان من نصيبها، تحدثت له عن زوجها وعن شراسته، وصفته بأنه لا اخلاقي وشخص قذر وأنه فاقد لرجولته أيضا.. شاهد على ظهرها آثار الضرب والتعذيب، والآن تخيل نفسه مجلودا مصفوعا مكويا بالنار، وتذكّر قول أحد المحققين الذي همس له قائلا: بأن

رئيسه السيد شخص مريض، وأدرك الان كيف يمكن لنفس مليئة بالحقد حتى لذاتها ان تمارس السلطة وتحكم.

اذن هذا هو السيد، لو يعرف مدى علاقته بزوجته فماذا يفعل به.؟

وتساءل السيد بفارغ صبر:

– ألن تعترف.؟

– الاعتراف، تبحث سيدي عن الاعتراف، أريد أن أقول لك كيف أُمضي ايامي.. ذلك اعترافي.. امضي سيدي ثلاثة ايام في السينما، ويومين مع الاصدقاء نلعب الورق والنرد والشطرنج ويوما مع.؟

كان بوده لو يستطيع ان يقول يوما مع زوجتك، ولكن ترى أية مصيبة كان يمكن ان تحيق به.

وآثر السيد ان يقطع عليه حديثه فتساءل:

– ويوما مع خليتك.؟!

– الن تعترف الآن وتكف عن سماجتك. سئمت استغفالك لي وضحكتك المزعجة وطولك الاخرق.

– سيدي ليس لدي ما أعترف به.

– سيكون لديك.. سيكون لديك.

قال السيد ذلك، وأشار للرجال الأربعة اشارة يفهمونها جدا.

لم يكن هناك حاجة لوصف ما أذاقوه من عذاب.. كان أحد اضلاعه قد كسر، نقل الى المشفى.. ثم بعد أن تماثل للشفاء أعيد للزنزانة ثانية ، ثم إلى التحقيق.. ثم إلى التعذيب.. سألوه عن أسماء كثيرة.

لعل الرحمة تأتيه من السماء.. كان هذا ما ينتظره مديد القامة، ولم يكن يدري أن اعتقال "مسعود" الذي أدلى بمعلومات دقيقة قد بعثته الرحمة لانقاذه.

وحنيما واجه مديد القامة السيد، كان مديد القامة ذا وجه ضاعت معالمه ولم يكن لقاء وداع.

قال السيد لمديد القامة بلهجة موتورة:

– لقد نجوت هذه المرة.. ولكنك لن تفلت مني ابدا..

شعر مديد القامة بأن كابوسا قد انزاح عن صدره، وأدرك مديد القامة أنه قد افرج عنه، فقال للسيد:

– اذن بينك وبيني ثأر يا سيدي.. ولكنك لن تثأر مني ابدا.. قد يكون ثأرك شخصيا.. أما أنا فسيكون جماعيا.. أو شعبيا كما يحلو لكم ان تسموه.

وخرج مديد القامة.. وهو يفكر في البحث عن الاستاذ "س" الذي تهرب من مقابلته، وأحس بشوق جامح للقيا زوجة السيد.

اما السيد فقد لفته الحيرة، ولم يفهم ماذا يقصد مديد القامة بالثأر الشخصي أو الثأر الجماعي.. وكان يشتم المحققين الثلاثة الذي لم يستطيعوا إدانة مديد القامة.

1973

الجسر

تدور دواليب السيارة بسرعة.. المذياع ينقل أنباء الدنيا "ومن عجيب زمانكم أبي قال هذا".. ثم ضغط السائق على زامور السيارة "ولكن أبي توفي قبل أن يتم وصاياه.. يا بني تعلمت أكثر مما تدرسون في الكتب.. الحياة مدرسة".

قال سائق السيارة:

– انتبهوا جيدا.. على الجسر يتم تفتيش دقيق.. الرسائل ممنوعة، ثم نفث سيجارته.

قال السائق:

– عاد "الدكتور.... م" الى "رام الله".

جملة حادة مبتورة.. لمن لا يعرف من الدكتور.؟ وما رام الله.؟ يا بني.. الارض تحمل لعنة.. مات (سعيد بك) بعد أن جمع ثروة كبيرة وبنى عمارات كثيرة.. في رام الله وفي غير رام الله.. أكبر فنادق البلد له.. لكن "اللعنة طاردته".

همهم الراكب بجواري:

– الدكتور يعود.؟ عجيبة.

كيف تسمح له السلطات الاسرائيلية بالعودة.؟ لا.. لا.. هذا مستحيل تسمح للكل.. الا الدكتور (ولكن يا والدي كيف تطارده اللعنة؟. سألته.. كان عمري يومها لا يتجاوز عشر سنين.. هز والدي رأسه بأسى.. يا بني.. لعنة الارض.

لعنة الارض.. أردت تفسيرا من أبي.. نظرت في عينيه. لم أجرؤ أن أقول له ما هي لعنة الارض.؟).

وهنا قال السائق:

– يا عم هَوّن اليهود لا يحسبون لعربي حسابا.. كلنا نهوش ونشتم ولا نصنع شيئا.

قال الراكب بجواري:

– الا الدكتور (ع).. لا يمكن.. لا لا يمكن.

تدخلت وقلت بهدوء وسخرية: هي اللعنة، ثم صمت.

كل من في السيارة نظر الي.. اللذان بجواري.. الذين يجلسون في الأمام كلهم ينظرون بنظرات ليست تماما غريبة.. لكنني لم افهمها.. وتشبه النظرات التي كانت في عيني والدي.

وكأنني أردت أن أتحدّاهم، قلت:

– هي اللعنة، هي اللعنة.

"كنت اريد أن اقول لعنة الارض.. لم اجرؤ.. سيطلبون مني مزيدا من التفسير.. ولكن لم تتبلور في ذهني تماما.. لعنة الارض؟"، تمتم راكب في المقعد الأمامي قائلا.. وكأنه أراد أن يشجعني:

– أي والله هي اللعنة.

أردت أن يتابع.. أن يتحدث.. أن يشرح لعله ينقذني..

قال الجالس بجواري بإصرار عجيب:

– الا الدكتور.. لا يمكن.. لا يمكن..

"لا يمكن ان يسقط، سيكون نائبنا في البرلمان، بل سيكون وزيرنا" هذا ما قاله والدي عن الدكتور حينما رشح نفسه في الانتخابات.. سينجح، مثله لا يمكن أن يسقط.. وسقط.. لماذا سقط ؟ لعله كان يومها الممثل الحقيقي للجماهير.

وحينما جاء الاحتلال.. كان يجب أن يطرد من رام الله".

يقول الجالس بجواري:

– أتعرفون ماذا صنع بهم؟. دوّخهم، أقول لكم.. دوّخهم. تكفي معالجته للفدائيين.. يكفي تنظيمه للمظاهرات وطبع المنشورات.. طيب.. هل تعرفون "عيسى السعدي"؟؟ عيسى السعدي يحكي لكم عن لقاء الدكتور بالحاكم العسكري الاسرائيلي.. دخلت امرأة عصرية بثوب قصير.. ابتسم الحاكم وقدمها للدكتور.. زوجتي يا دكتو..

وقالت له مبتسمة:

– اظن يا دكتور أن هناك فرصة لنعيش بسلام كما نجلس الان بسلام.

وابتسمت بسمة عريضة.

نظر الدكتور إليها من اخمص قدميها، وتسلقت نطراته ساقيها الجميلتين وصعدت إلى أعلى ركبتيها، لتلتقي بفخذين بضين عاريين.. وتصطدم عيناه بعينيها.

ابتسمت وكأنها تحاول أن تستدرجه إلى شي ما.. قال لها.

– أتعرفين بماذا كنت افكر.؟

ووضعت ساقا على ساق فانحسر الثوب اكثر.

– كنت افكر في أنك شابة وجميلة.. لكنك للأسف قد تفقدين زوجك بين لحظة وأخرى.

ثم انسحب دون أن يمدّ يده ليودّع أحداً من الجالسين.

"حينما كنت جالسا مع أبي تركني والحيرة والتشوق تدفعني إلى معرفة لعنة الأرض التي طاردت سعيد بك".

– أمي من هو سعيد بك.؟

ابتسمت أمي وقالت:

– اذن المرحوم حكى لك عنه.

– ما هي حكاية اللعنة التي طاردته.؟

– آه لعنة الأرض يا بني.. لعنة الأرض..

– ما حكايتها.؟

– قصة قديمة يا بني.. قديمة.. قديمة.

لم استطع رغم محاولاتي مع أُمي.. أن اعرف كثيرا عن لعنة الارض التي أصابت "سعيد بك".. ولكنني عرفتُ بعد تقصٍ لمعلومات كثيرة، أنّه مات عاريا مع ساقطة في حمام مختنقين بالغاز، في بلد غريب بعيد دفن فيها. وقد يكون هذا

الجانب من حياته أو مماته على حد سواء ، سبب التكتم في سرد قصته. أمسكت بسيجارة، فبادر الجالس بجواري لإشعالها "ومن وصايا ابي التي لم تتم.. لا تدخن".

كان آخر حديث لأبي ولم يكمله عن لعنة الارض.. لماذا تدق اللعنة على رأسي بهذا العنف..؟ يتحدثون عن "الدكتور ع" وأنا اشغل نفسي بتلك الحكاية القديمة التي لم تتم. اللعنة، لعنة الارض.. قلت في نفسي لماذا لا يكون الدكتور هو "سعيد بك" جديد.؟ استسخفت نفسي لمجرد التفكير بهذا.. الدكتور يعشق الارض، وهي لا بد ان تعشقه فكيف تحل عليه لعنتها.؟

لكنني رغم ذلك ظللت أحسب أن للدكتور علاقة ما بلعنة الارض.. سواء علاقة ارتباط أو رفض.. وخطر ببالي "سعيد بك" كان بعيدا عن الارض.. فطارته اللعنة ونحن الذين نركب السيارة بعيدون عن الارض.. ما هذه الأفكار.؟ كيف أريد أن اخترع تلك العلاقة.. بين الناس وبين لعنة الارض.؟

قال الجالس بجواري.. أتعرفون أن هناك الكثيرين سيعودون إلى الضفة الغربية ، بعد أن كتبوا على أنفسهم تعهدات لحكومة اسرائيل بعدم المساس بأمنها.؟

قال واحد: عجيبة.. عجيبة.. يرتمون في حضن العدو.؟

" أبي قال لي: أن الأارض.. أمك.. لا تجد حضنا يؤويك سواه.. اذا هجرته.. يا ويلك يا ولدي يا ويلك".

قلت:

– تقول عجيبة..! أعجيبة أن يعودوا ليرتموا في حضن الارض.؟ ما هذا الكلام يا رجل.؟

قال: لكن ليس بهذه الطريقة.. ليس بهذه الطريقة.

قال آخر ساخرا:

– اذن فلينتظروا جحافل التحرير.

ضحكت ثم قلت بجدية:

– اسمع يا اخي.. جحافل التحرير آتية يوما ما.. التحرير أمل لكنه بعيد ، ومن أجله.. لو نستطيع ان نقذف بآلاف من شبابنا في حضن الارض.. " إن الارض أمك... لا تجد حضنا يؤويك سواه اذا هجرته.. يا ويلك يا ولدي يا ويلك" أو لو توقف نزيف الارض التي تنز شبابا، يخرجون من حضنها كل يوم في صحارينا العربية.. وخلف محيطات العالم.. آه ماذا أقول لك.؟ صمت الرجل.. هز رأسه. أحسست أنه ليس مقتنعا تماما..

لعنة الارض.. تدق رأسي بعنف..

قلت له:

– أنت ذاهب لزيارة أهلك في الضفة الغربية.. بتصريح من العدو.. وهو ذاهب ليرتمي في حضن أرضها.. ما الفرق.؟ من يخلص للارض.؟ من الذي يرتمي في حضن العدو إذن.؟ من ينال بركة الأرض إذن.؟

انتفض الرجل، وكأنني طعنته برمح حاد الطرف. أردت أن أخفف وقع الكلمات عليه.. فقلت:

– يا سيدي.. ليست القضية قضية ارتماء في حضن العدو أولا، قدر ما هي ارتباط بالأرض وعدمه.. أنت وأنا وكل الذين يعيشون مثلنا خارج الارض.. ماذا تنتظر منا الارض.. ؟ ونحن ماذا ننتظر منها.؟ أن تمنحنا جميعا حبها..

مقابل ماذا.؟ نحن لا نعطيها سوى الألم والأمل والدموع.. اليس كذلك.؟ ماذا نصنع للارض.؟

تدخل الرجل الجالس بجواري:

– يا جماعة المسألة لا تحتاج أكثر من كلمة ونصف.. الذي يرجعون عن طريق "لم الشمل أو "زيارة" يرجعون.. لأنهم ابناء الارض. ساد الصمت وكأن كلينا آثر السكوت خشية أن يتطرق نقاشنا الى ما لا تحمد عقباه.

كنا قد اقتربنا من الجسر.. وعاد السائق ليذكرنا بالممنوعات والمرغوبات وقال بجدية مصطنعة:

– يا اخوان لسنا بحاجة إلى بطولات.

وكان بودي أن اسأله: أي نوع من البطولات تعني ... لكني آثرت الصمت.

قال الجالس بجواري:

– إذا كانوا قد سمحوا للدكتور بالعودة.. فسيممحون لنا بأن نحمل متفجرات.

قلت ضاحكا:

– وسيسمحون لسعيد بك وعشيقته ان يخرجا من قبريهما، ويأتيان بأكفانهما. "لست أدري ما الذي جعلني أتذكره.. أهي اللعنة.؟"

قال:

– سعيد بك.. اتعرفه.؟ سعيدبك شيء آخر.. اتعرف حكايته.؟

أومأت برأسي ثم تمتمت مدعيا المعرفة التامة.

– رجل وعشيقته في حمام.. شر ميتة.. ولكن اتعرفه.؟

– لا. لا.. ولكن حكايته سمعتها من ابي.. قال: انه باع اراضيه لليهود قبل عام 1984.. ثم طارده المجاهدون.. ليقتلوه.. اتعرف الدكتور ع. كان واحدا من الفتيان الذي طاردوا..

– ولم يقتلوه.؟؟ قلت مشجعا رفيق سفري ليتم الحكاية.

– لا.. كان معه.. عدة جوازات سفر.. ولم يعرف المجاهدون خبرا عنه ، الا بعد ان نشرت صحيفة اجنبية فضيحة، ونشرت صوره.. تلك خطيئة الارض التي باعها.

– الدكتور... ماذا عن الدكتور.؟

– الدكتور يا صاحبي انا اعرفه.. بعد ان طرد من رام الله عاش مغموما.. كان ينظر الى وجوه الفلسطينيين وهم يمشون في كل المنافي.. في كل الشوارع البعيدة عن الارض. كان يقول انظروا فلسطيني يعاني آلاما.. لكن كيف يسمحون له بالعودة.؟ شيء محير.؟

قال واحد:

– بل كيف يرضى أن يعود.؟

– لعله يهرب من الآلام.

ثم صرخت:

– اللعنة.. اللعنة يا صاحبي.. وكأني ارشميدس يصيح بعبارته الشهيرة.. الدكتور.. هرب من الآلام.. هرب من اللعنة.. خلاصه كان الارتماء في حضن الأرض.. ككل الهاربين، كل المهاجرين، كل الخائفين، أنا وأنت وكل الناس، اما أن نكون الدكتور أو أن تطبق علينا اللعنة بكفيها..

وصلنا الجسر ترجلنا.. كانت هناك أفواج عديدة بانتظار دورها في الدخول.. وافواج أخرى بانتظار دورها في الخروج.. وكان لي رغبة جامحة في أن أقف في منتصف الجسر مادّا ذراعي بطولهما، وأن اصيح في تلك الافواج: أيها الناس من كان منكم ابن أبيه وأمه.. ومن كان منكم حفيد الدكتور أو شقيقه.. أو قريبه.. أو صديقه.؟ فليتبعني الى بطن ذلك الوادي.. والا فقدته أمه.؟ فقد الحضن الذي لن يؤويه سواه، رحمك الله يا ولدي.. رحمك الله.

ولكزني جندي من جنود العدو.. هيا تحرك.؟. لماذا تسد الطريق.؟

كانون أول – ديسمبر
1972

لو يتكلم الصمت

– وماذا يعني الصمت الذي تغرق فيه...؟

– .....

– اجبني

– .....

– لماذا لا تتكلم!؟

وكأنها تقصد أن تدخل اعماقي. هل أنا أغرق في الصمت.؟ هل أفكر في البيت الذي نسفه العدو.؟ هل أفكر بآلاف الضحايا الذي قتلوا بأيد عربية؟.

– أنت تذبحني بصمتك.. هل اواسيك، او تواسيني!!؟.

بيتنا الذي نسف.. هل أواسيك.؟ تكلم.. بيتنا..

وحينما مددت يدي، خارج نافذة السيارة، التي تقلنا إلى الجسر. كانت تجلس بجواري.. سائق السيارة وراء المقود وحيدا في المقعد الأمامي.. وهي تهمس إلي. أمسكت السيجارة، وأنا أنظر عبر جبال القدس. والسيارة تنهب الارض باتجاه الشرق.. المذياع يبث أنغاما.. يغني للأرض. يغني للمدافع.. ويغني للثوار، على أيَة حال هي أرضنا اذا اتجهنا شرقا،، أو شمالا، أو جنوبا، هي بلادنا.. أجبني تكلم.. هل أواسيك.؟ هذا السؤال المكرر يظل صداه يتردد في اذني.. بيتنا الذي نسف.. وهل هو أول بيت.؟ أقبل المختار ليعلمني بالنبأ:

– يا يوسف.. أمر من وزارة الدفاع بنسف بيتكم.

قالها وحشرجة أحسها في صوته.. ثم تابع:

– عليكم أن تخلوا البيت خلال ساعة. وقفت أفكر في كلامه.. بماذا أردّ عليه.؟ الانسان تخنقه إحساسات مؤلمة حينما يشعر أنه في لحظة سيفقد ذكرياته وآماله.. سيفقد الجذر الذي يشده، وزوجتي.. كيف أعلمها بالنبأ.؟

– يا عائشة.....

– نعم....

وساد الصمت ثم قالت عائشة:

– ماذا هناك.؟

انزلقت من عيني دمعات.. لست ادري كيف انسابت تلك الدمعات من المحاجر.؟ بطرف يدي سحبت الدمعات المنزلقة على خدي.

– تبكي يا يوسف.. تبكي. أبكي.. حينما حاء أقسى خبر في حياتي.. لم أبك..

سألتني عائشة لحظتها:

– ابنك مات.. أنت صلد.. عواطفك يا يوسف من صخر.. كيف تكبت مشاعرك.. ؟

– (يا عائشة.؟) ابننا لا نبكيه أبدا.. ابننا نزرع له في كل شارع وردة.. نروي قصته، كل يوم قصة.. كقصة (أبو زيد) وعنترة. أن يموت ابننا، وحوله حزام ناسف، ينتحر.. يضحي.. يموت.. يستشهد مهما كانت الكلمات، فإنه لاقى حتفه

في عملية بطولية.. فجّر نفسه في مقدمة رتل مدرعات العدو، لينقذ رفاقه.. فكيف أبكيه.؟ كيف أبكيه.؟

– ماذا يا يوسف.؟ أتبكي.. تبكي.. يا عائشة ابكي.. نعم الان أبكي. لا افقد ابنا لذا ابكي. وهل يحق لي ان ابكي في لحظة اخرى.؟

استجمعت لحظتها قواي.. اعصابي.. بحثت عن كل الكلمات التي تصلح لانقل بها الخبر اليها.. لأن أخفف حدته.. الكلمات ضاعت ابحث عنها لكنها تهرب مني.

– يا عائشة سينسفون البيت.. أمر بالاخلاء خلال ساعة.

عائشة لا تبكي: عائشة تنظر إلي... عائشة تتحرك.. عائشة تقول... ماذا تنتظر.؟

ابتسم لها رغم كل الرؤى التي تجلل عيني.

ماذا أنتظر.؟ خيل إلي أنني لأول مرة اشاهدها، عائشة ليست عائشة، هي عائشة جديدة.

أقول لها: أنتظر أن ينسفوه.

لكن عائشة تتحرك. داخل الغرفة هذه وتلك.. تنادي جاراتها، يساعدنها في نقل بعض الاشياء.

– ساعدنا يا يوسف.. تحرك.. تحرك..

قلت لها بحدة وجفاف.. اتركي كل شيء.. ماذا ستنقذين من بيتنان؟ فراشا.. أطباقا.. ثيابا.. ما حاجتنا اليها ما دام السقف الذي يظللنا سيطير.؟ ما

دامت الارض التي تحتضننا تحترق.. اتركي كل شيء، كل شيء. عائشة وقفت مشدوهة.. سنعيش عرايا.. لا بيت، لا غطاء، وكتبك، وكتبك أنتركها..

وكأنها ارادت ان تذكرني بأعز ما أملك.. كتبي.. كتبي.. ثم انساب الى آذاننا فحيح مكبر الصوت:

(أيها المواطنون سكان منطقة الشرفاء.. عليكم إخلاء المنطقة تماما من الشمال حتى المدرسة القديمة، ومن الجنوب حتى بيت (ابو عيسى) المختار، ومن الشرق حتى الجنوب حتى بيت (أبو عيسى) المختار، ومن الشرق حتى بيت محمد العلي وحاكورة المنسي، ومن الغرب حتى بقالة الأمانة.. ونحذركم بأن كل من يوؤي مخربا.,. أو يقدم له أية مساعدة.. سوف ينسف بيته وسيلاقي أقصى العقوبات..) وقفنا من بعيد نراقب. اهل الحي يواسونني ويحاولون تعزيتي.. يقولون ان صدورهم مفتوحة اذا لم تسعني بيوتهم.

وسألتني عائشة.. كيف يمكن أن يعرف العدو بهذه السرعة استضافتنا للفدائيين.؟

كيف .؟ أهذا سؤال.؟

وكيف لا يعرفون ؟ هو ذا السؤال. حينما تكون كل مقاييس الاخلاق عندنا هي فقط شرف امرأة.. يكون لنا الحق ان نسأل وكيف لا يعرفون.؟ بلهجة عربية صافية.. العد التنازلي من خلال (ناقل الصوت) عشرة سبعة.. ثلاثة.. واحد.. صفر).

كان كل المتجمهرين قد وضعوا أيديهم على آذانهم.

صرخت فيهم.. أيها القوم.. لماذا تصمون آذانكم عن صوت يناديكم.. ولكن أصابعهم ظلت مسمّرة في آذانهم.

أرقب عائشة وهي بعيدة عني.. لا تضع كفيها على اذنيها. أريد أن أشبع من سماع الصوت.. الصوت يريد أن نسمعه بكل ما فيه من عنف، من ضغط، من قوة، من ألم.. هو جزء من حياتنا هو لحظة شفافة ما بين الحقيقة وما بعدها.. هو اللحظة المبهرة ما بين الموت وبدء الحياة.

وقفت اتأمل المشهد– لحظة النسف– كانت بالنسبة لي كأنها حفلة عيد ميلاد.. الناس يُرددون أدعية.. البعض يشتم.. البعض يقول (الله يهدّ اللي كان السبب).

بيتي بيتك يا يوسف.. اذا لم تسعك بيوتنا.. لك قلوبنا وعيوننا..

يواسونني.. والذي يظهر أن العدو أراد أن يثبت أنه أكرم منهم. اذ جاءني امر بالترحيل بعد ساعات. ركبت وعائشة سيارة اجرة سائقها عربي.. وتسبقها سيارة عسكرية وتتبعها أخرى للحراسة، وقالت عائشة.. أية مفاجأة سنفاجىء بها والدي ووالدتي في مخيم الوحدات.. فلم أرد عليها.

كانت السيارة تنهب الارض وتشق الطريق وأنا أنظر يمينا ويسارا ، انظر إلى التراب.. إلى جبال القدس.. شجيرات السرو والبلوط.. هل صحيح اني سأحرم من رؤيتها الى الابد.؟

ولكن أين جحافل التحرير.؟ أين الفدائيون الذين يزرعون الارض بالرعب، أين الجيش العربي الموحد الذي سيحقق النصر.. أين هو.؟ هل هو حلم.؟ أهو حلم أن تتحقق إرادة العرب ووحدة العرب..؟

أيها التراب.. كيف يمكن أن أنساك ؟

كانت عصافير (الدوري).. تطير وتحط على الشجيرات.. وعصافير (الحساسين) بصوتها العذب تغرد.. ثم اجتزنا بعض التلال المصطبغة بالحمرة.. لكن متى ستروى بدماء الشهداء الذين سيغسلون عار امة بأكملها.؟

– انتم امة من الغنم.. مائة مليون نعجة.

هكذا قال لي الضابط الاسرائيلي.. وبصقت في وجهه.. وصفعني.. وماذا يهم.؟ بصقت مرة اخرى.. وماذا سيفعل ؟ أمر الترحيل بيدي.. عائشة بجانبي، السيجارة قاربت على الانتهاء.. اسماء السجاير في ظل الاحتلال اخذت اسماء جديدة.. هذه آخر علبة ادخنها.

عائشة بجانبي تذكرني.. بالبيت المنسوف، تذكرني انها بجانبي.

– وماذا يعني الصمت الذي انت تغرق فيه.؟

الصمت.. يعني ان نصمت.. ان نعيش هكذا بلا ضحيج.

– هل اواسيك او تواسيني.؟

عائشة، أتعرفين لماذا اغرق في الصمت.؟ لأني بحاجة الى الصمت. ونظرت الي وكأنها تقول انت لا تسفسط، إنك تتعذب، وأنا افهم نظرة زوجتي كما أفهم اشارتها وحركتها.

والتفت السائق نحونا وسأل:

– استاذ يوسف هل تسمع الاخبار.؟

– نسمعها.. وهل من جديد؟. وابتسمت.

نقل المذياع انباء نقض اتفاقية عمان.. الاتهامات المتبادلة بين الفدائيين والحكومة الأردنية.. والكل يلقي التبعة فيها على الآخر.

وقال السائق:

– أستاذ يوسف.. ما رأيك.؟

يريد رأيي، وما فائدة الآراء ما دام لا يسمع في بلادنا سوى رأي واحد. آه لو كنا بإرادة واحدة.. قوة واحدة.. دولة واحدة.. إذن لانتصر العرب.. العدو نفسه يقول أننا لن ننتصر أبدا.. لا تقل لي لا تصدقه، هو يعرف واقعنا. يريد رأيي.. وهل أقول له:

– آه لو ننتصر على انفسنا.. الجهل.. الانانية.. نحن قبائل من المحيط الى الخليج، آه لو يربطنا حزام الشعب الواحد.. انظر الى الفدائيين.. يهبون انفسهم للموت، شيء رائع ان يهب انسان حياته لقضية.. ولكن ليس الفدائي فقط. كل العرب، كلهم يجب أن يهبوا انفسهم لقضية الحياة والموت.

كم أعاني من فكرة الموت هذه.. الفدائيون يهبون أنفسهم للموت.. ونحن نراقب!! نتفرج.

حينما استضفت الفدائيين في بيتي.. انتابني تردد.. خوف.. جبن ... تخاذل.. ثم قلت لهم...

– تفضلوا.

قالوا لي بعد ان جلسوا: نحن رفاق ابنك خالد.. وكأنهم ارادوا أ يطمئنوني. أحسست لحظتها براحة وتبددت كل مخاوفي.. وشعرب بتأنيب الضمير.. سألتهم عن أخبارهم هنا، وفي الأردن.

واحد منهم، احلف بالله انه يشبه ابني خالد: طوله وقوامه، هيبته، وبسمته، انسابت من عينه دمعة.. اخلف بالله انها كانت تشبه دمعة خالد.. حينما لاحظ اني رأيتها، احس بارتباك وخجل.

قال:

معذرة يا عم، اسرتي في مخيم الوحدات.. وبيتنا نسف هناك.,. نسف بمن فيه.. (مخيم الوحدات واهل زوجتي هناك).

قال نسف بمن فيه، ها قد عادت فكرة النسف مرة اخرى.. وبيتنا هنا قد نسف ايضا.. ولكن سبق السيف العذل. لقد دخلوا بيتك فليش الواشون.. هؤلاء رفاق خالد.. وعلى دربه يسيرون فلينسف البيت بمن فيه، ولكن بعد ان يخرج الفتيان ليؤدوا واجبهم.؟

– هل أواسيك أو تواسيني يا يوسف.؟ لم أعرف بماذا أواسيه.. هو شبه ابني خالد: نحن أهلك وأسرتك. نظرت اليه وهو شارد الفكر والنظر، ثم تابعت، الذين نسفوا البيوت في عمان سيدركون يوما أنهم نسفوا بيوتهم، أنهم وضعوا الالغام في قلوبهم.

قال:

– لكنهم يا عماه.. حاربوا شعبهم بوحشية اكثر من وحشية العدو.. قتلوا اخوتهم واهلهم.

فماذا اقول له.؟ هل أقول له أن العدو الأول الذي يحاربنا وينخر في عظامنا كالسوس، هو العدو الرابض في أعماقنا. عدونا في ذاتنا.. أن يصبح الشعب الواحد شعوبا.. هو ذا السلاح.. الذي يحاربنا به العدو.. نحن أعداء

انفسنا. تحرك السائق وهمس لي.. هذا هو (الخان الاحمر) انظر هناك، اومأ برأسه الى اليمين.. ذلك طابور من آليات العدو.. واعقبت عائشة: كان قبل ذلك معسكرا للجيش العربي. كانت السيارة تمر من بين جبال (اريحا) الجرداء، والريح الساخن يلفحنا في هذا الغور السحيق.. البحر الميت يمتد بصمت وخشوع امامنا.. فاردا قامته.. وكأنه في انتظار عودة ابنائه. على يسار الطريق، على امتداد النظر، كنا نشاهد مخيم (عقبة جبر) ومدينة (اريحا) والصمت يشير الى ما يعانيانه من ألم.

عند الجسر وصلنا. قابلنا ضابط اسرائيلي.. ومدّ يده ليودعني.. لم امدّ له يدي، كان علمهم الابيض ذو النجمة الزرقاء السداسية يرفرف. قال الضابط مبتسما:

– انهم في عمان ينسفون البيوت ايضا.

بعد أن بدلت السيارة لوحتها الاسرائيلية بأخرى اردنية.. وبعد اجراء تفتيش على الضفة الشرقية من النهر.. سارت السيارة، اعترضتها نقاط تفتيش كثيرة.. كثيرة.. حينما اجتزنا نقطة تفتيش (صويلح) قابلنا في حدود مدينة عمان نقاط تفتيش تزهق الروح على حد تعبير السائق.

ثم سألني.. أي مكان تريدون في عمان.

إلى (الوحدات).. قلت له. كانت زوجتي تنظر وهي مشدوهة الى البنايات التي اصابها التدمير في عمان والى العمائر المحترقة..

وقالت: أكل هذا الترميم.. الذي أشاهده كان دمارا.؟

لم نمر من منطقة الا وشاهدنا بها دمارا او آثار دمار.. مستشفيات.. مدارس.. مساجد.. كنائس.

الموت في عمان يطل من كل الزوايا.. حينما تسلقت السيارة.. جبل الاشرفية الى الوحدات.. قالت زوجتي:

– وماذا يعني الصمت الذي تغرق فيه.؟

– .....

– اجبني.

– .....

– لماذا لا تتكلم.؟

– .....

– هل أواسيك.. هل تواسيني.. بيتنا الذي نسف.؟

– .....

انظر.. انظر.. هنا ايضا ينسفون البيوت.

نظرت في عيني زوجتي كانت قد غرقت في البكاء.. وهي تتمتم:

– هنا ايضا ينسفون البيوت.. ينسفون البيوت.

وصلنا بيت والدها.. ولكن البيت في مخيم الوحدات لا اثر له.

مارس – آذار 1972

المـرآة[1]

اندحرت بالامس البسمات عن شفاه اللاجئين، وحينما تحدث اليهم الجندي، الذي لا يتجاوز عمره سبعة عشر عاما، وكان كما لاحظ الجميع ان بندقيته أطول منه، وأن شاربيه لم ينبتا بعد.

قال ذلك الجندي بنبرة عالية مخشوشنة:

– أيها النساء.. أين شبابكم.؟

– في الطابور الطويل الذي اصطف بناء على تعليمات الجيش، كان الشيخ "محمد" واحدا من هؤلاء. عمره يتجاوز السبعين. يتوكأ على عصا، وذقنه طولها طول شبر، ولونها بلون الثلج الذي غطى الارض. ينتعل حذاء، أصابع قدمه برزت من ثقوبه.. استغفر الشيخ محمد ربه، واستعاذ من كل شيطان رجيم. ما هذا العصر الذي نحيا فيه.!؟ ما هذه "البهدلة".؟

وكانت يداه تصطكان من البرد.

يوم كنت في "يافا"، كنا نحارب اليهود.. ليس اليهود فقط.. والله كان الانجليز معهم.. دوّخناهم... رجال.. أي رجال.!! هكذا كانوا يقولون عنا..

– أيها النساء .. أين شبابكم.؟ أين من ألقى القنبلة.؟

---

[1] ((ثنائية البطولة في القصة مقصودة))

ابتدأ الجندي الذي بندقيته اطول منه، في استعراض سلطته. اقترب من طفل مديد القامة، عمره عشر سنين وان كان طوله يفوق عمره بكثير.. جذبه الجندي من كتفه ودفعه دفعة قوية.. جرى الطفل يظهر محني، وتدحرج كالكرة ثم انغرس وجهه في الثلج.

قال الجندي:

– أنت شبل.. ها فدائي.. أنت ميليشيا تقذفون القنابل وتختفون.. استغفر الشيخ محمد ربه وحدث نفسه "هذا الطفل يرمي قنبلة.!! ليته يفعل ذلك.

رأيته بالامس وهو يلعب مع قرنائه في الثلج.. كوّموا كرات الثلج وصنعوا منها قنابل ودبابات.. وعملوا رجلا ضخما.. فدائيا بقامته يقف. كنت أراقبهم وأنا أود لو شاركتهم ألعابهم.. واقترح احدهم أن يصنعوا نصبا للشهيد، بدلا من النصب الذي أزيل في مخيم الوحدات والاشرفية.

رأيتهم بعيني يعملون نصبا.. الثلج قاس.. لكنهم يعملون النصب .. أمه نادت عليه:

– أقبل يا حسام.؟

لكنه قال لها:

– أمّاه لماذا احضر .؟! هل تريديني أن اجلس في البيت كالنساء.. اخرجي انت ساعدينا أيضا..

وشتمته أمه.. ودعت عليه "يقصف عمرك" واستمر الولد في اللعب.. وقال له زميله:

– ماذا تريد عمتي منك.؟

– تريدني أن أرجع إلى البيت.

فرد عليه زميله:

– أصلك دلّوعة أمك. تخاف عليه.

وثار حسام.. وكاد يبكي.. وهو وحيد أمه، وأبوه استشهد، لكنه رغم ذلك لا يمكن ان يكون دلّوعة.

– فكّر هو وأصحابه، لو أنّ النصب الذي يقيمونه يظل إلى الأبد. أو لو أنّ الشمس لا تشرق أبدا، فيظل النصب قائما".

وبعد أن ركل الجندي حساما.. كانت الدمعات تنساب من عينيه.. ورغم ذلك يحاول جاهدا ألا يدعها تنساب.

"الرجل لا يبكي.. البكاء للنساء".

كان هذا ما يقوله أبوه دوما له.. وكم من مرة حكى له أبوه قصصا، عن العمليات التي قام بها في الارض المحتلة. وحينما مات جاء إليهم الشيخ محمد – جارهم القديم– لينقل الخبر..

– مات زوجك يا أم حسام.. البركة في البطل حسام.

حاول حسام أن يدرك معاني الموت فبكى. فراق أبيه.. يعني، البكاء. وسرح ذهنه "من سيحكي لي عن اجتياز النهر، والدبابات واليهود.؟، من سيحكي لي عن البيارات التي تركناها.!؟ لا.. هذا ليس مهما.. من أين سآتي بأب يحمل "كلاشنكوف" وأحكي قصته لزملائي؟".

حاول حسام أن ينهض، كانت كفّاه قد انغرزتا في الثلج، وقدماه كذلك، ووجهه غسله الثلج.. ورفع نفسه قليلا، فقابلته قدم ثقيلة تدوس عليه وتشتمه.

– فدائي.. ترمي القنابل.. أين تنظيمكم السري.

الشيخ محمد، لم يقف صامتا، او هكذا بدا للجميع.. كان يتمتم، وبيده التي ترتجف أمسك عصاه.. لا أحد يدري لماذا ترتجف.؟

أهي بسبب الكبر والسن.؟ أم بسبب البرد، أم بسبب الاضطراب والخوف.؟! وتحرك الشيخ يجر قدميه.

– يا بني.. اترك هذا الطفل اليتيم، إنه وحيد أمه.. لا يعرف القنبلة من الكرة.

وقال الجندي وهو يضحك:

– اخرس.. هل هناك فلسطيني لا يعرف القنبلة من الكرة.؟ الطفل يولد عندكم وبيده قنبلة.

"استغفر الله.. عندنا.. يقولها هذا الجندي.. عندكم، وكأنه ليس واحدا منا، استغفر الله، متى أصبحنا شعبين؟!".

– سامحك الله يا بني. سامحك الله، أنا اكبر من والدك.. هذا الطفل لا يفهم شيئا إنه يتيم.. يكفيه آلاما وتعذيبا.

ولكن الجندي لم يأبه لقول الشيخ، وأخذ يستعرض سوطه على ظهور الأطفال والشيوخ وكل من في الطابور.

كان يشتم، وينفخ، ويظن نفسه ملك الملوك. كيف لا.؟ وحيث، لا أحد يجرؤ أن يُكلّمه.

أخذ واحد من المصطفين يتوسل اليه.. ويطنب عليه: أن البرد والثلج سوف يقتله فهو مريض.. وأخرج من جيبه ورقة طبية.. إلا أنّ الجندي قال كسيد الموقف:

– هل أنت أفضل مني يا خنزير.؟

ثم ركله في جانبه وتابع:

– أنا مثلك في البرد والثلج.

ثم اقترب منه وقد التمعت في دماغه فكرة.!!

– اذن تريد أن تذهب.

ابتسم ولعل الفكرة الجهنمية قد هبطت اليه.. تقدم الرجل منه.. يخطو وهو يحس بأن بسمة الجندي لسيت ودية بما فيه الكفاية.

تقدم الجندي من الرجل ثم سأله:

اين بيتك.؟

تحرك الرجل باتجاه بيته، ثم اشار إليه من مكانه.. فتقدم منه الجندي وهو يضحك، ثم لطمه على مؤخرته وقال له:

– الان " رَوّح ".

ثم قال:

– من منكم يريد أن يعود إلى بيته.

كانت قد انطلقت ضحكة من طفل صغير، للمنظر الذي رآه.. أما حسام فكان لحظتها قد وقف. وكان يمسح الدموع التي تذرفها عيناه .

نظر حسام الى الصف الطويل، كان عادل – زميله في المدرسة – يقف في الطابور. تذكر حسام، سخافة الموقف..! ماذا سيقول عادل عنه.؟

حينما كانوا يلعبون عربا ويهودا.. كان دوما يقود الهجوم العربي.. يتفوق حسام دوما وينتصر.. أما اليوم ها هو يقف مضروبا مذلولا امام أهل المخيم كلهم.. غدا سوف يضحك عليه عادل وأولاد المدرسة.. سيقولون له كيف تغلب اليهود وأنت مغلوب هنا.؟ الشيخ محمد كان يظن أن للجندي قلبا.. ولكن الجندي تعلّم أن حياته ووجوده يرتبطان بهذه المهنة.. هنا لقمة عيشه.. فكيف يرق.. وتذكر الشيخ محمد– وكان يعمل يوما ما مع القسام.. ياه. يا له من تاريخ قديم، عشرون أو ثلاثون لا بل أربعون عاما. يرحمك الله يا شيخ عز الدين القسام –.. كنت تقول لنا دوما، ليسوا اليهود هم المشكلة ولا الانجليز.. نحن المشكلة.. نبني انفسنا.. ننظمها.. نخلق انسانا جديدا.. ماذا سيعمل اليهود بين بحر من العرب.. العربي كسيح.. ويجب أن يقف على رجليه اولا..

رحمك الله يا شيخ عز الدين، كلماتك تفوح منها رائحة الجنة.. نحن الكساح نفسه.. نحن المرضى ونحن المرض.. نحن الداء والدواء.. فلنبدأ بأنفسنا.

ها نحن يا شيخ عز الدين.. لو عشت لليوم، لترى ما يفعله الأخوة ببعض! يفعلون أكثر مما كان يفعله الانجليز بنا.. كل يوم يفجرون قنبلة صوتية في المخيم، ويجمعوننا هنا، يشتموننا ويبصقون في وجوهنا، وكأن وجوهنا ليست وجوههم. هم يظنون أنهم يبصقون في وجوهنا ليذلونا.. والله انهم لخاطئون.. فنحن

المرآة يا شيخ عز الدين.. نحن المرآة اذا بصقوا في وجوهنا، او اذا طلوها أو زينوها.!!

يحاولون أن يذلّونا.. كل يوم يأتون، سواء كان الجو ممطرا أو ثلجا، أو رائقا.. ساعة آذان.. ساعة غذاء.. ساعة عمل.. لا يهم.! انهم يأتون وحسب.. ونحن نصطف طوابير كل يوم. فكرت مرة أن أخالف أوامرهم، ولكنهم جلبوني– والله العظيم – أمسكني ولد بحجم "اللقمة" من ذقني وهو يقول لي: يا خنزير الشيب.. نحن لا نملأ عيونك، لماذا لا تخرج.؟

جرجرني برغم مرضي وعجزي.. وأصبح فرضا عليّ أن أخرج كل مرة.. طيب ها أنا خرجت، وهنا مئات يصطفون يتسلون بنا.. لماذا هذا الجندي بالذات يعاملنا هكذا .. زملاؤه لماذا يتحركون ولا يتكلمون.. طيب انا خرجت.. ولكن لماذا يخرج الطفل حسام هو وغيره.؟ لو سألنا حسام الطفل اليتيم.. ماذا فعل لهم.؟ الفدائيون خرجوا,.. وهم يعرفون هذا، فماذا يريدون منا بعد هذا.؟

هنا يتعلم حسام بداية الطريق.. من المرآة.. تعلم حسام ويتعلم الطريق إلى يافا من أين تبدأ.. تبدأ حينما تُمسح الغشاوات المتلبدة عن سطح المرآة فيشاهد حسام صورته كاملة غير مشوهة..

الجندي صاح.. :

– وبعد. أيها النساء.. ألن تُعلمونا أين شبابكم.؟ أليس فيكم رجال.؟ كان يضرب بالسوط ضربات خفيفة على ساقيه.

– أين الفدائيون؟.. أين من يفجرون القنابل.؟

تقدم منه الشيخ وهو يرتجف.. ويدب على عصاه..

– اتق الله يا بني.. تفجرون القنابل وتتهمون مخاليق الله.

ثار الجندي.. شتم وبرطم وأخذ يكرر:

– كلاب.. كلاب.

وقال كلمة ثقيلة على اللسان والنفس ... يا "....." سوف يخرج من بينكم.. من فجّر القنبلة وإلا ستنامون هنا في العراء..

فكر الشيخ.. " العمر واحد والرب واحد "..

– أنا فجرت القنبلة يا بني.. أنا فجرتها..

ضحك الجندي ساخرا:

– تريد أن تعمل بطلا أيها العجوز المأفون.. تريد أن تعمل شجاعا.. تريد أن تعمل فدائيا..

– نعم أنا فدائي.. أأنا فجرت القنبلة.. الفدائي لا عمر له.. من أول لحظة في العمر لآخرها يكون.

كان الطابور مندهشا من العجوز.. لكنهم ينظرون وكأنهم يقولون له انت بطل، هكذا أحسّ بنظراتهم.. نظرات حسام كانت مزيجا من القلق والخوف، وكأنه يريد أن يقول أو يصنع شيئا من اجله.. أمسك الجندي بتلابيب "القمباز" وأخذ يصفع العجوز ويقول:

– أيها العجوز المخرّف سنريك ماذا تعني بطولتك.

أخذ يضربه.. فبكى حسام.. وصاح:

– كفى كفى.. سأعلمك كل شيء.. كل شيء..

تقدم حسام بخطوات ثابتة.. استغرب والله مشيته كانت كمشية أبيه تماما وهو يحمل الكلاشنكوف.

قال للجندي:

– انا الذي فجرتها.. انا ماذا تريد اكثر من ذلك.؟

– انت. قال الجندي وأحس بنشوة النصر، قال وهو يمشي بخيلاء:

– أنا لا يخيب ظني أبدا.. أبدا.. من أول نظرة أعرف.. أفهمها وهي في السماء.. لم يخب ظنّي أبدا.. ثم تقدم من حسام:

– أنت إذن أيها القذر.

ثم صفع حساما وضربه بكعب البندقية في بطنه.. سقط الغلام على الثلج وهو يتلوى ويفحّ فحيحا مزعجا.. ولكن دمعة واحدة لم تنزل من عينيه هذه المرة.

أقبلت سيارة "لاندروفر" ونزل منها ضابط وعدة جنود ليغيروا الدورية.. تقدم الجندي– الذي بندقيته اطول منه– ليؤدي التحية للضابط.. فعاجله الضابط:

– انصرف.

– لكن يا سيدي.!

– انصرف قلت لك.

– لكن يا سيدي هذا الغلام اعتر....

ومن غير ان يسمع الضابط حرف الفاء، كان قد عاد الى سيارته وهو يقول: انصرف.

صاح الجندي بغيظ وهو يشير الى الغلام: هذا الذي قذفها.. هذا الذي قذفها.. هذا الذي قذفها، ثم سار دون ان يلتفت. ايها الكلاب لنا موعد.

قدم جندي آخر خطواته أكثر جدية. الجيمع من البرد يصطكون.. ينظرون الى بعضهم البعض في قلق. كانوا يحركون أقدامهم لتكتسب بعض الدفء.. وهمهم أحدهم:

– إلى متى يزرعوننا في الثلج.؟

تقدم الشيخ يحاول ن يحمل حساما.. حسام كان يتألم ويمسك بطنه بيده.

رفع الشيخ حساما عن الارض.. إلا ان حساما سقط متألما والشيخ محمد بجانبه.

كان الجندي الجديد يستغرض الوجوه الواقفة في الطابور. من غير أن ينبس ببنت شفة..

4 كانون الأول – ديسمبر 1971

تنويعات من قلب ايلول الاسود

1- مراسل وكالة الانباء

(ماذا اصف لكم.؟ الدخان يملأ التلال السبعة.. الرعب يغمر النفوس.. الكل يشد يده على قلبه.. الرعب.. الرعب.. أشم الرعب ولا شيء غيره. المدافع تزأر والناس لا يجدون ما يأكلونه أو يشربونه، الاف الجرحى في الشوارع هنا وهناك.. القتلى لا مكان لدفنهم. حالة حرب لم أشهد لها مثيلا.. انها مجزرة خيالية.

الصمت هنا لا يعني سوى الرهبة والخوف، لأن فيه الترقب لما هو جديد، يعني أسلوبا من الموت والدمار. أشهد عمائر كثيرة قد خرجت.. مخيمات اللاجئين يتعالى الدخان منها من كل جانب.

الفدائيون ينتقلون من شارع الى شارع.. يستبسلون، الشعب يقف معهم يأويهم يطعمهم. الشعب سينتصر الشعب..)

((ولكن أصوات المدافع والرصاص كانت أقوى من صوت أي انسان حتى ولو كان ينقل الحقيقة. جاءت الرصاصات من القناصة المتمركزين في السفارة الامريكية، مزقت عنق مراسل وكالة الأنباء الذي كان في شرفة عالية من فندق الاردن، يرقب ويصور ما يجري)).

2- العجوز

عمري سبعون عاما.. شاهدت حروبا وحروبا، حضرت السفر برلك، اليهود حاربونا، والانجليز معهم ضربونا، لم نسمع ولم نر مثل ما يجري الان، الذين

يضربون لا يمكن ان يكونوا على دين الاسلام.. لا، لا يمكن ! هؤلاء الكفار، أنا أعرف لا يضرب من على دين الاسلام اخاه.

ها هو الجامع مليء بالحثث. خندق الاشرفية مليء بالقتلى. ماذا أصنع بجثة ابني.!! الله موجود.. اللله موجود.. سوف انقله الى خندق الاشرفية مع اخوانه الشهداء.. اللهم أعني على نقله وحمله. ها أنا أحملك يا حبيبي على كتفي الضعيفتين إلى جنة الخلد يا ولدي. ((الرجل العجوز يجر نفسه وحمله ثقيل)) .

3- أم أسعد

ألهث.. ابني (أسعد) شبل يحمل (الكلاشنكوف)، لا أدري أين هو.؟ نجوت وطفلي الذي احمله في احشائي من تحت ركام بيتنا في المخيم.. زوجي مات بيده بندقية. ابنتي ماتت.. ها أنا أهرب من الوحدات.. من الموت أهرب، إلى الأشرفية أهرب.. الخندق أمام مستشفى الأشرفية مرعب.. هل أُلقي بجثة زوجي هناك مع المئات فيه.؟ الروائح تزكم الأنوف، أواه الآلام تثقل عليّ.. لا يمكن أن تكون آلام المخاض. لا أقوى على التحرك.. آه يجب أن أتمالك نفسي حتى أصل إلى أي بيت، حتى لو كان غريبا.. آه يا ألم المخاض.. يا صديقتي هو ذا ألم المخاض أعرفه. سأجلس هنا بجوار هذا السور..

((أصوات المدافع والرصاص لا يعلوها شيء، حتى لو كان صراخ ألم المخاض. طفل يصرخ في عرض الشارع، يولد تحت أزيز الرصاص.. مكتوب على جبينه عربي فلسطيني.. أم أسعد بمساعدة جارتها، قاست عملية الولادة، وحملت وليدها وجرجرت نفسها إلى منزل قريب و...)) .

4- الطفلة (عائده) عمرها خمس سنوات

هيا اخرج يا جهاد.. هيا أين أنت.. أصوات المدافع عالية أسمعها، هيا لنجمع الرصاص الفارغ.. جمعت أكثر منك، آه انني جائعة ، هيا نخرج لنلعب.. أريد أن آكل يا جهاد، أين أنت يا جهاد.؟

(تجري باحثة عنه خارج المنزل)

استيقظ، يا لك من غبي تنام في الشارع بدلا من ان تجمع الرصاص الفارغ.؟ أريد أن آكل لماذا لا تسمعني.؟

استيقظ اريد ان آكل.. هيا بنا نلعب.. استيقظ يا جهاد

((تحرك اخاها، تحتضنه، تزحزحه من موضعه.. تشهد دماء يغرق فيها.. تصرح وتصرخ..

أصوات المدافع تزأر، والرصاص صوته لا يعلو عليه شيء، حتى ولو كانت صرخات الأطفال، والرصاص يمزق صوت الطفلة، فتنام بجوار أخيها)) .

5- الراهبة

يطرق الباب برغم الموت إنسان.. من يكون؟! أنا الراهبة أفتح له، بيت الله، ولمن يطرقه أفتح.. ما بك يا أخي.؟ فدائي ملثم يريد ماء.. أسقيه.. أحضر له أكلا.. أعالجه.. أدخله غرفة للاستراحة، طرقات عنيفة على الباب، وصوت المدافع والرصاص يعلو على كل شيء لا أدري من بالباب.؟ بيت الله.. ولمن يطرقه.. افتح. جنود وضباط.

- ماذا تريدون أيها الاخوة.؟

– نريد الفدائيين المختبئين عندك.

– لا يوجد احد (من يدخل بيت الله في حمايته). قلت في نفسي..

– سوف ندخل..

– هذا بيت عبادة لا يحق لكم أن تفتشوه (من دخل بيت الله في حمايته) قلت ذلك في نفسي.

يثور الجنود يهددون.. بالقوة سيقتحمون الكنسية.. أقول لهم يستحيل ذلك.. مستحيل أن تدخلوا بيت الرب أو تفتشوه.. هو بيت للرب.. ومن أجل الرب أقيم.. هو للسلام، ومن أجل السلام أقيم

((صوت المدافع أقوى من صوت الراهبة.. المدفعية تضرب بعنف، الكنيسة تضرب، يفر الجنود وضباطهم لائذين لملجأ.

وتدخل الراهبة تدعو ربها هاتفة بالنجاة.. جزء من الكنيسة تهدم. تقع حمامة ملخطة بدمائها، زجاج يتحطم، تطل العذراء بحنق، تحدق عيون العذراء، تريد أن تقول وتقول الف شيء)).

6– أهالي الأرض المحتلة

الشاحنات قابعة.

و كتب عليها لافتات مساعدات من أهالي غزة، وأخرى من الضفة الغربية.

أرسلوا الخبز والماء.. أرسلوا البيض المسلوق.. أرسلوا البرتقال والبطاطين,.. المدافع تزأر ويلعو صوتها هدير محركات الشاحنات..

الشاحنات لا تجد طريقها إلى الأفواه التي تنتظرها والمدافع تأكل حتى ما تحمله الشاحنات.

7- الندابات على قبر الشهيد في جبل الاشرفية

يا شب يا حلو الشبـــاب يا حيف جسمك للتـراب يا حيف جسمك
للبلـــى صبايا وين ماشيـــن قدامكم وحل وطيـــن قدامكم حيش
حسيـــن قدامكم جيش البلـــى ويتيم عالقبر واقـــف بيسأل عن ابو
مش عارف وين اندفن القتيـــل وابنوا على القبر خيمـــة يا خيمة الشهيد
حمـــرا يا ريت قتاله قتيـــل يا حبيبي يا خويـــا ياحبيبي يا بويـــا يا
حبيبي يا سنـــدي يا حبيبي يا ولـــدي يا ريت من قتلك قتيـــل

*****

الموت في منزل عربي

أخذ المختار يقرأ الرسالة (السارة) العجوز، التي أرسلها ابنها مع ابن الجيران، بينما علا نشيج سارة، كان صوت المختار يردد.. (امي العزيزة.....

بعد تقبيل يديك الطاهرتين.

أهديك سلامي وأشواقي وقبلاتي....)

واستمرت دموع سارة في الانسكاب حينما أخذ المختار يتلو ويعيد لها القراءة:

..... يا أمي الحبية.

نحن بعيدون عنكم، وأنتم مزروعون في تربتنا، مهما شختم، أنتم جذورنا هناك.. لكم أشتاق لأن أقبل يديك الطاهرتين، واستسمحك عن كل صغيرة وكبيرة وكل تقصير في حقك، أريدك أن تحافظي على صحتك وأن تهتمي ببيتنا.

فكرت وزوجتي– التي تقبل يديك الطاهرتين، وتدعو لك بكول العمر– أن نحضرك لتعيشي هنا معنا، وتدبّرنا الأمر كثيرا، لكننا أخيرا، وبعد أن جاء هؤلاء ليحتلوا أرضنا فكرنا كيف نسحب أنفسنا من وطننا.؟

فكّرتُ بأن وطننا هو نسيج ثوب كبير، لو نسل كل واحد منا خيطه من الثوب، لما بقي هناك ثوب.. أبدا لن يبق هناك ثوب.

اذن فلتبق يا أم في بيتنا، مهما تلاقين، ومهما يلاقي الجميع، أوصيك أن تعملي من أجل اتمام تصريح (لم الشمل) حتى لو دفعت البرطيل.. ذلك ليس مهما.. المهم أن تظلّي وأن تعودي.. سأرسل إليك كل ما تحتاجينه واكثر..).

وهنا تململ المختار حينما سمع كلمات البرطيل.. ولم الشمل، وعندما سمع عن استعداد ابنها لدفع كل ما تحتاجه.

في الشتاء السابق، دفعت ساره له عشرة دنانير تحت الحساب، من أجل ،ن ينجز لمّ الشمل، ولكن ها هو الشتاء يقبل ولم يصنع شيئا، وكل ما تسمعه منه، شكواه المستمرة من الصعوبات التي يقابلها عند الخواجات، والبرطيل الباهظ الذي يطلبونه.

استيقظت اليوم مبكرة، خشخشات المطر المتساقط على عتبة المنزل الذي ورثته عن والدها ووالد والدها– تبعث في نفسها ذكريات طفولية.. كم جرت، كم لعبت في المطر وكم غنت (اشتي وزيد بيتا حديدي) وأمها تنادي عليها:

– يا سارة أدخلي– برضائي عليك يا بنيتي..

وتدخل سارة البيت، بثياب مبتلة، وشعرها المربوط بضفيرة طويلة، انسابت منه خصلات ثابتة على الجبين، وثوبها الطويل يلتصق بجسدها النحيل.

ها قد أقبل الشتاء القارس وليله الطويل في القدس.. وهي تعيش وحدها. أما وحيدها (سعيد)، فإنه يعمل بعيدا في الكويت، يرسل لها شهريا عشرين دينارا. وقبل الحرب، كان يرسل لها عشرة فقط، تكفيها وتدخر منها.

اليوم على غير العادة، قامت بهمة ونشاط، أحصت الدنانير التي ادخرتها وهي تتحرك داخل البيت الموحش، نتقل كرسيا من مكانه، ترتب الفراش، ثم تعيد

ترتيبه مرة أخرى، تصنع شايا على موقد الفحم، تدق العجوز بالهون لتشرب القرفة بالجوز المسحوق، وأخذت تُرتّب صندوق ثيابها، كم مرة قال لها ابنها سعيد:

(هذا الصندوق مثل التابوت، سنرميه ونحضر لك دولابا عصريا)

ولكنها ظلت مصرّة على استخدامه ،على الرغم من أنّه أحضر لها دولابا بضلفتين ومصراعين. ووقفت عند الصندوق واستعادت كلمات ابنها.. (انه تابوت).

وانطلقت ضحكات من الأم (تابوت.. إنه تابوت)... تابوت.. تابوت.. الله يجازيك يا سعيد، كان هذا الصندوق فرجة لكل فتيات الحي ومضرب الأمثال لجماله.

رفعت العجوز الستارة عن النافذة، ومسحت بيدها البخار المكثف على الزجاج، وألصقت وجهها وأنفها الرقيق بسطح الزجاج، واستشعرت ببرودة لذيذة تصافح وجهها وركزت نظرها من خلال المطر الهاطل ، وهو يضرب أسطح البنايات المقابلة.. فشاهدت أجراس كنيسة القيامة، ومئذنة مسجد عمر، كان المطر يندلق، وكأّن السماء قد شرعت ابوابها (اشتي وزيدي بيتنا حديدي) كم كان يتعبها ابنها سعيد في الشتاء. تبدل له ثيابه مرة بعد مرة ثم مرة اخرى، وهو لا يكف عن اللعب في المطر. كان يعمر البيت بالحركة والبهجة. واليوم كبر وتزوج، وظلت تعيش في وحدتها لا طارق ولا سائل.. اللهم إلا زيارة بعض الجيران التي غالبا ما تكون يوم الجمعة.

هذه حال الدنيا، سافر ابنها ومات زوجها ولم يبق لها إلا الذكريات.. وها هو التابوت صندوقها القديم، شاهد على كل ما فات وكل ما هو آت. وأخذت تقلب في أشياء عزيزة على نفسها، امسكت بعلبة صغيرة مليئة بالصور، وأخذت تفتش فيها مدققة النظر، وكأنها تريد استحضار ماضٍ يمتد إلى أكثر من ربع قرن دفعة

واحدة، هاته صورة زوجها ومعه طفلهما سعيد، وعمره يومها سنة واحدة، وهذه صور عديدة. وأخذت تحملق بالصور وكأنها تريد ان تعانق أصحابها..

واستوقفتها صورة لزوجها (ابي سعيد) كان يرتدي ثياب القتال ويحيط بصدره، حزامان متقاطعان محشوان بالرصاص، ويتدلى من جنبه الايسر مسدس وعلى كتفه بندقية، كانت تلك الصورة لزوجها بكل شبابه وحيويته أثناء اشتراكه في حرب سنة 1936، وانهالت على سارة ذكريات تلك الحرب والاضراب الفلسطيني الكبير، اذ حقق المجاهدون يومها انتصارات مجيدة على الانجليز واليهود.

اما اليوم فهي ترى كيف استطاع اليهود ان يستولوا على القدس (مدينة الله) وكيف احتلوا الأرض العربية.. ولا من يسأل ولا دم يتحرك.. سوى دماء الفدائيين.

وكانت تتساءل:

– لماذا لا يتحرك الشباب والشيوخ لضرب اليهود.؟ وهل نحارب بالرشاش فقط.؟

* * *

حينما جاء جنود الاحتلال الى منزلها لتفتيشه بعد أيام من هزيمة (حزيران)، فكرت أن تهشم رأس أحدهم بمهراس فتقتله ولكنها تعقّلت قليلا، وعندما جاء رجال الاحصاء ليحصوها، رفضت في البداية استلام البطاقة، وأقنعها المختار ان تأخذها والا فان اليهود سيطردونها من الأرض، فالقدس كما يقولون أصبحت اورشليم. واستغربت يومها كيف يجوز لغاز أن يمنح صاحب الارض الحق في بقائه على أرضه، ولكن العجوز عرفت يوما وراء يوم، كيف حاول العدو استنزاف

طاقات الشباب العربي، اما بطرده خارج الارض او بتشغيله واغراقه في حياة مرفهة، بعيدا عن العمل بأرضه، وعندما كتب لها سعيد انه يريد لم الشمل زغردت وشعرت باعتزاز:

(هذا هو الاخلاص للأم، للبيت، لصندوق الخشب، للشعب، للارض).

هكذا قالت.

كانت العجوز لا تكف عن تقديم كل ما يسعها الجهد للفدائيين، وذلك بعد ان زارها فدائي فقرع الباب، فتحت له واستضافته ليلتها. وبعدها توالى الفدائيون الذين يزورونها من غير ميعاد.

حتى حينما أعلنت اسرائيل ضم القدس اليها، وأخذت تطبق نفس النظم على القدس العربية، لم تكل ولم تمل وهي تزور الناس وتقول لهم:

(يا ناس كيف ترضون ان تكون مدينة الله لأعداء الله؟).

كان البعض يقول لها :

– وماذا نصنع.؟ وما باليد حيلة.؟ العرب ينامون ويخطبون في هيئة الامم ويوزّعون نفطهم على أعداء العرب.؟ ماذا نصنع.؟

فترد عليهم:

– قاطعوهم.. قاطعوهم.

* * *

لم تكن العجوز تدرك ماذا ينتظرها هذا اليوم؟ اذ تدفقت على مخيلتها كل الذكريات وكأن المطر قد وفد ومعه ذكرياتها لعقود طويلة.

وشعرت سارة بحاجة لرؤية ابنها وزوجته ولو لحظة.

جلست بجانب الموقد وهي تمسك بالمهراس وتدق في الهون حبات الجوز تطحنها، وتناهى الى مسامعها طرقات على الباب.

لم يخطر ببالها من عساه يكون الطارق في يوم ممطر كهذا.؟

وتساءلت:

– من يا ترى.؟ هل هو المختار جاء بلم الشمل.؟ ام هل هي جارتي فاطمة.؟ ام أحد الفدائيين.؟

ولكنها استبعدت الفكرة الاخيرة، لانها تعودت على زيارة الفدائيين لها ليلا وتوالت الطرقات.. كان القادمان شابين يميلان الى السمرة ويخالط شعر أحدهما الشيب الذي بادرها بقوله:

– صباح الخير.

فردت تحية الصباح ثم اردفت:

– تفضلا..

تقدم الرجلان الى الداخل.. ولكنها سألتهما قبل أن يصبحا داخل الحجرة:

– ولكن بلا مؤاخذة من أنتما.؟

قال احدهما من مع بسمة تصطنع الود:

– ضيفان يا حاجة سارة..

ابتسمت العجوز وأسرّتْ في نفسها.. إذن قد يكونان قادمين من الكويت من طرف سعيد.؟

فعاجلتهما:

– أهلا وسهلا أَمنْ طرف سعيد.؟

قال الثاني مبتسما:

– من طرف السعادة.

وكأنه يصطنع الظرف.

(وقال الآخر الذي يصطنع الود):

– اتسمحين لنا بالجلوس.؟

– تفضلا.. هكذا أجابت سارة العجوز.

قال الذي يصطنع الودّ:

– بإمكانك أن تنهي عملك ونتحدث سويا.

لبرهة صمتا، ثم سأل مصطنع الودّ:

– ماذا كنت تصنعين.؟

– أدق الجوز وأُنعمه ، هل تشربان قرفة بالجوز.؟

قال لها:

– لا شكرا، استمري يا خالة استمري.

وقال الذي يصطنع الظرف:

– استمري كي نأكل شيئا من يديك الحلوة.

ابتسمت العجوز بسمة واهية ، ولكن الحيرة والقلق كانا يعتصران فؤادها: من هذان الغريبان.؟ وماذا يُريدان؟.

قطع مصطنع الود حبل تساؤلاتها وقال:

– تعلمين أن القدس أصبحت جزءا لا يتجزأ من اسرائيل.

شهقت العجوز، حبست انفاسها.. ودقت على صدرها ثم سألت باستغراب:

ماذا تقول.؟ من قال هذا.؟

قال المستظرف:

– الواقع يا خالة. وانت الآن مواطنة اسرائيلية؟.

فقهقهت العجوز مما جلا عنها كل تقاطيع الحزم والحيرة في وجهها.

– أنا سارة بنت محمد العلي وزوجة فاروق المصطفى أكون يهودية؟!

خسئت.. خسئت.

تمالك الرجلان أعصابهما.

قال االمستظرف ببرود واضح:

– هو الواقع.. ثم سكت.

وعلا الجو صمت.. واخذت العجوز تقلب بصرها في الرجلين وانفجرت صائحة في وجهيهما:

– أي واقع.. انا عربية.. وهذا بيتي لم يتغير عليه شيء.. انا عربية.

قال مصطنع الود:

– لكن انت مواطنة اسرائيلية لك حقوق المواطنة في ارض اسرائيل اورشليم.

تذكرت العجوز.. ما سمعته من الفدائيين حينما كانوا يحدثونها عن العدو الذي بلع الأرض ويحاول مسح الشعب من عليها.. كانوا يقولون أنه يريد أن يفرض علينا واقعا ويهضمنا.. كانوا يقولون انه لا يمكن أن نتهاون، أو أن نتنازل.

وحينما كانت تسألهم وماذا نصنع؟.

كان جوابهم:

– نثور .. نظل شوكة في حلوقهم.

تمالكت العجوز صبرها وتساءلت:

– اذن ماذا تريدان.؟

– نحن قادمان من طرف صندوق رعاية الشيخوخة الاسرائيلي؟

– وماذا يريد الصندوق مني.؟

أجاب المستظرف:

– لا يريد منك وإنما يعطيك.

– يعطيني.؟ قالت ذلك باستنكار واستغراب.

– نعم، ضمان اجتماعي للمواطنين الذين بلغوا سن الشيخوخة ولا عائل لهم.

– ومقابل هذا.؟ تساءلت العجوز باستنكار..

– لا شيء هذه حقوقك كمواطنة اسرائيلية.

بحزم اجابت:

– لا لست مواطنتكم ولست بحاجة اليكم.

قال مصطنع الود:

– لكن المبلغ من حقك شهريا.. لا نريد منك شيئا.. ولا نطلب منك التزاما. فقط سيذكر اسمك.

قاطعته متسائلة:

– تذكرون اسمي؟ أين ولماذا؟

قال المستظرف:

– الصحف تذكر اسمك مع من تذكرهم، وأنت لست الوحيدة، هناك كثيرون مثلك وافقوا على استلام مبالغ الضمان .

هذا الرجل يحاول ان يستدرجها، وحدثت نفسها (هناك آخرون؟. كاذب.. كاذب، ليس هناك من احد.. ويكتبون اسمنا في الصحف؟. إذاً يريدون أن يؤكدوا عملية الضم التي قال عنها الفدائيون...).

فكّرتْ العجوز.. ماذا لو كتبت الصحف عنها ولكن بطريقة أخرى.!؟ ماذا لو القت بنفسها وهي محشوة بالمتفجرات.؟!

ثم جالت بنظرها في أرجاء الغرفة.. طالعت الشباك .. والكراسي.. والفراش والصندوق الخشبي.. وتذكرت كلمات ابنها، إنه يشبه التابوت.

قال لها المستظرف:

– أيتها العجوز.. ماذا ترين.؟ نحن نعرض عليك الخدمات.

– لا أريد خدماتكما.. اغربا عن وجهي.

وكانت تدق الجوز ببطء متناه.

قال:

– أنت مواطنة نقدم لك خدمة انسانية.. انسانية فقط..

استشاطت غضبا:

– انسانية.. انت تتحدث عن الانسانية.. اتركوا أرضنا اذن.

– أرضكم.؟!

وقهقه ثم شتم:

– عرب.. كلاب.

كان المهراس بيدها وقالت وهي تصر على اسنانها، عرب كلاب يا كلب.. كلاب تنهش لحمك.. وكان المهراس قد هوى على رأس الرجل، وتحرك الرجل الآخر بسرعة يمسك يدها وكانت سارة تصرخ:

العرب كلاب يا كلب..

كانت ترتجف وتتمتم بكلمات غير مترابطة.

سعيد.. لم الشمل.. الارض.. اليهود.. العرب.

* * *

ولكن هل يا ترى نعلم ماذا حدث للعجوز بعد هذا.؟

إلا أننا نعرف أن رسالة ابنها كانت ما تزال في موضعها.. ومجموعة الصور في نفس مكانها، وأما الصندوق الخشبي فقد كان ما زال في مكانه، تلتصق به كلمات ابنها: انه تابوت.

1972

حوار في حلقة محطمة

-1-

اذا جاز لي التدخل، أستطيع القول أننا في محل بقالة و "عمر" هو صاحب البقالة، والبقالة في القدس، والقدس كما تعرفون، وقد لا تعرفون أنها لصاحب البقالة.

البقال حر.. يبيع لمن يشاء.. ويشتري ما يريد.. وقد لا يبيع، وقد لا يشتري، واذا دخلت عليه سيعرف إنْ كنت زبونا أو غريبا.

هذه باختصار قصة البقال والرجل الاشقر.

-2-

ازدحم اليوم زبائن كثيرون في المحل، لا بد أن يشتري كل منهم حاجات البيت.

"يا ولد، اسرع، اربط هذه الاغراض جيدا.. ضع تلك السلة".

حينما جاء أبو محمد قلت:

– أهلا ابا محمد، من زمن ما شرفتنا، تقاطعنا يا رجل.؟ لك وحشة كبيرة. بضائعنا كما هي ما زالت عربية، سامحك الله، إذا كنت قد قاطعت البضائع فهل تقاطع جيرة العمر.؟ هل تقاطعني يا رجل.؟ سامحك الله يا ابا محمد.

وهمست في اذنه "لعلهم بدأوا يتسللون بيننا، يريدون ان يختلفوا بنا، أن يتسربوا الى عروقنا. انظر هناك انظر الى ذلك الرجل الذي دخل البقالة رجل

طويل على زاوية أنفه تقبع نظارة، وجهه أشقر، أصلع، لم أره قبل الان، إنه ينهمك في جمع الاغراض. يا ابا محمد علمت عن دورك في مقاطعة الاحتلال وحربك الصامتة للعدو.. لحظتها أحسست بفورة من الزعل عليك، أي والله، من الزعل، أبو محمد جارنا ولا يسأل عنا.؟ ولا يشاركنا معه بهذا الشرف.؟ قلت لمحدثي يومها بشيء من الفخر.. هو جارنا، رجل ولا كل الرجال، انظر الى بقالتي بدأت أرففها تفرغ من المعلبات".

قال لي سعيد المنسي:

– كن عاقلا وتدبر أمورك، ستخرب بيتك وستقطع رزق العيال، اذهب وتحوج من القدس الجديدة كما فعل معظم التجار.

قلت له بنرفزة:

– اتق الله يا رجل، ماذا تقول:"

قال:

– أي والله كما أقول لك، الكثيرون فعلوا ذلك وهل ستعمل وطنيا آخر زمانك.؟

قلت له:

– انا لا افهم بالسياسة، ولكن اعرف ماذا تريد.؟

ضحك وقال:

– كل السوق تغرق ببضائع اسرائيلية.

قلت له:

– الله كريم، لكن دُكّاني، وبأغلظ الايمان، لن تدخله بضاعة اسرائيلية، لن أبيع بضائعها..

ضحك سعيد المنسي ومشى وهو يقول:

– ستموت من الجوع يوما يا عمر، ستموت من الجوع.

– آه يا أبا محمد، هؤلاء يأتون الينا، يسرقون قروشنا ورزق عيالنا ويذهبون، انظر إلى هذا الرجل، يجمع بضائع بعشرة دنانير وأكثر، والبقالة؟. كلها كم عشرة دنانير تساوي.

"هيا يا ولد، ناول الزبائن ما يريدون".

الزبائن يتدفقون، حقا جمعة فضيلة، يشترون وأنا أبيع.

أما هذا الرجل الاشقر الغريب.؟ ماذا يريد.؟ هل سيفرض علي أن أحدّثه؟؟ يسألني عن البضائع فليجه الحائط إذا كان يسمع، ليسأل ما يشاء.

"اسمع يا ولد، ناول أبا محمد أغراضه وأوصلها إلى سيارته".

وأنت يا اخي ماذا تريد.؟ وعليكم اسلام، أهلا أهلا، تفضلوا بثلاثين قرش، وأنت يا شاطرة، صابون جمل نابلسي.؟ حاضر حاضر، وأنت.. وأنت.. وأنت.. وأنتم كلكم حاضر حاضر..

اما أنت، أنت، أنت.؟؟؟

3- الرجل الاشقر

وقفت انتظر دوري، البائع مشغول لعله لا يراني، لعله لا يراني. تناولت علبة "بسكويت" و "شيكولاته" و "كاكاو" و "سردين" و "سجائر"، لعله لا يراني . تقابلت عيناه بعيناي وناولهم أغراضهم، دفعوا له النقود وخرجوا، هذا البقال العربي يثير غضبي، دخلت قبل هذا وذاك، بل وقبل تلك الطفلة الصغيرة، كلهم مشوا، ظللت آخرهم وظل يثرثر، يا رجل.. هل هو أطرش.؟ اسمع يا حبيبي، ما زال يثرثر . اقتربت منه، انتقل الى زاوية أخرى من دكانه، تناول أغراضا تظاهر بترتيبها، دخل زبائن جدد رحّب بهم، ناولهم أغراضهم، دفعوا النقود وخرجوا، هذا العربي الحقير لماذا لا يسرع فينهي الحساب.

– يا ولد هل أوصلت أبا محمد.؟

– حسابي، سأذهب.

– قلت لك لا تغب حين توصل الطلبات.

انه ما زال يتجاهلني..

– ألا تسمعني.؟

– تعال هنا، يا ولد يا كلب يا سافل.

أمسك بالولد وأخذ يضربه بعنف، ويشتم "كلاب، والله كلاب، ماذا نفعل بكم نطردكم.؟ ليس الطرد كفاية لكم، اخرجوا، اخرجوا" ويضرب الولد والولد يصيح.

اقتربت منه وقلت له:

يا حبيبي لا يجوز أن تضربه، ماذا صنع لك.؟

كانت عيناه تبرقان، وأسنانه تصطك ويدان ترتجفان.

– أريد أن أمشي، كم حسابك.؟

ولم يرد، قلت في نفسي هؤلاء العرب لا يفهمون لغة الادب، وإذا كان لا يريد ان يقول لي عن ثمن البضائع فسآخذها، وماذا في استطاعته أن يفعل لي.؟ هو وبقالته وأرضه لنا، نعم سآخذها سآخذها. خطرت لي هذه الفكرة سآخذها.

قلت له:

– بكم هذه الاغراض.؟

ولم يرد وكان الولد ما يزال ينتحب.

صرخت في وجهه:

– اذا لم تقل بكم سآخذها، سآخذها.

ابتسم الرجل، ونظر الي ثم انطلق مقهقها، هل قلت شيئا يضحك.؟ سآخذها، هذا ما قلت له هل هذا يُضحكه.؟ كان بودّي لحظتها أن أقلب دكانه رأسا على عقب فوق رأسه.

– أتظنني أمزح معك، سآخذها.

أدار ظهره لي وتشاغل هذا الحقير مرة أخرى بترتيب بضائع دكانه، إذن سأعلّمه درسا لا ينساه، كيف يجرؤ أن يتصرف عربي معي هكذا.؟ أخذت البضائع وخرجت، لو هذا الرجل يقول كلمة، كلمة واحدة، واحدة فقط.

* * *

-4-

خرج الرجل الاشقر الغريب بالبضاعة، سيثور عمر البقال.

عمر البقال لم يثر.. قال:

– اخذوا أعز من البضاعة، ولكن بقي لنا شيء واحد، شيء واحد نملكه لن يستطيعوا اخذه، سيحاولون ولكن لن يقدروا.

عاد الرجل الاشقر الغريب منرفزا:

– يا عربي، يا كلب لا تكلمني.؟ لماذا لا ترد علي.؟

ورمى البضاعة أرضا، وأخذ يرفسها بقدميه ويصيح، ويشتم ويصرخ، ولكن عمر البقال كان يبتسم، لم يفعل أكثر من الابتسام واستمر يرتب بضائعه.

12-نيسان – 1972

القبور تتحرك

"استيقظوا، استيقظوا، القبور تتحرك، شواهدها تمشي".

كان هذا هو الصوت الذي استيقظ عليه الحاج حسن، وكان الصوت الذي استحثّه على النهوض من فراشه هو صوت صديق يثق به.

– ما الذي أسمعه.؟

كان هذا هو سؤال الحاج حسن.

ولكن أبا محمد ظلّ يردد:

– استيقظوا، استيقظوا، القبور تتحرك، وشواهدها تمشي.

– ما الذي تقوله يا رجل.؟

كان هذا سؤال كل من صادف أبا محمد وهو يردد قوله، وتهامس البعض "ا إنّها لشيخوخة وهذيانها كان الله في عون ابي محمد".

ولكن أبا محمد ظل يردد:

– استيقظوا، استيقظوا... ... ...

الجميع لم يصدّقوا ذلك، لم يصدّقوا ما قاله أبو محمد للحاج حسن، اما الحاج حسن فإنه يثق بأبي محمد– جاره وصديق عمره– الوحيد الذي بقي من الاصدقاء، كثيرون منهم غادروا "غزة" ومنذ أن شدّد العدو حملاته ضد أهل القطاع، غادر البعض أرضه كرها، والغالبية منهم قامت سلطات الاحتلال بترحيلهم إلى الضفة الغربية أو إلى ما وراء النهر الباكي.

استيقظوا، استيقظوا، القبور.....

وحينما استيقظ الحاج حسن بعد أن تأكد من صوت صديقه، لم يشغل باله كثيرا في حقيقة القبور التي تتحرك، او شواهدها التي تمشي..

تجمّع كثيرٌ من الناس، استمعوا لحكاية القبور التي تتحرك وشواهدها التي تمشي، كان أبو محمد يحكي لهم، وبحرارة يصف ما شاهده.

– أتذكرون مصطفى بن العبد، وعلي شاكر، ومحمد أبو السباع الذين استشهدوا قبل ثلاثة اشهر.؟ رأيت شواهد قبورهم تمشي، تلك حكاية لا يمكن أن تصدقوها، انا أعرف ذلك ولكنني بأم عيني وتراب أرضي، أني رأيتها تمشي. وبالليل يمكنكم أن تشاهدوها..

كثيرون فكّروا ان ينتظروا الليل، كي ينظروا قبور الشهداء التي تتحرك، وعلى الرغم من أدوامر منع التجول غامر البعض لمشاهدتها.

الحاج حسن هو الوحيد الذي لم يفكر في أن يذهب للتأكد مما رواه صديقه، وحينما زاره صديق عمره أبو محمد استقبله كالعادة وكأنه لم يسمع شيئا.

بادره ابو محمد:

– لماذا تتجاهل الموضوع.؟

– أي موضوع.؟

– موضوع القبور.

ثم سكت، وبعدها قال:

– انت اذن لا تصدقني.؟

– كيف عرفت.؟

– لم تفاتحني بالموضوع.

– لأني أُصدّقك.

– إذن كيف تفسر ذلك.؟

صمت الحاج حسن، كانت سمات التفكير ترتسم على محياه، نظر الى السماء وكأنه يستوحي منها شيئا، كانت السماء صافية، لونها أزرق بلون صفاء بحر غزة العربي. وكانت الشمس قد بعدت من منتصف السماء باتجاه الغرب.

بهدوء قال الحاج حسن:

– أتعرف إلى أين تذهب الشمس.؟

قهقه أبو محمد حتى بانت نواجذه:

– إلى أين.؟ تسألني إلى أين.؟

رد الحاج حسن:

– نعم، نعم.

أسرع أبو محمد مجيبا:

– الى الغرب. وضحك ضحكة طويلة انطلقت من اعماق قلبه الابيض.

قال الحاج حسن:

– نعم، لكنها بالنسبة للآخرين قادمة من الشرق.

– أتريد أن تتفلسف يا طويل العمر والسلامة، قال أبو محمد

آنذاك، قدمت مجموعة من الشباب نحوهما وقالوا:

– يا أبا محمد، لقد شغلت الناس بقضية ليس هذا وقتها.

قال أحدهم:

– مؤامرة رجعية، هل تصدق يا حاج ما قاله أبو محمد.؟

ثار أبو محمد.؟

– يا أولاد هل يكذب عمكم أبو محمد.؟ هل أكذب.؟

أردف آخر:

– حاشا لله، ولكننا نعاني من احتلال، ولسنا في حاجة الى مزيد من الخرافات، نريد ان نطرد الشك باليقين، شيء لم نره كيف نصدقه.؟

قال لهم الحاج بثبات:

– أصدّقه، أصدّقه. ثم لزم الصمت.

وبعد برهة قطع حبل تفكيره قائلا:

– أنظروا إلى أين تذهب الشمس.

أسرع أحد الشباب مرددا:

– إلى الغرب، إلى الغرب.

ضحك الحاج ضحكة طويلة، فأحس الشاب بحرج، لماذا يضحك الحاج منه.؟

أما الحاج فعاجله قائلا:

– لكنها بالنسبة للآخرين قادمة من الشرق.

قال الشباب:

– ولكن، ما علاقة الشمس بالقبور التي تتحرك.؟

– تلك يا أبنائي جزء من القضية. هكذا قال الحاج.

وبحماسة سأل آخر:

– وما الجزء الباقي منها؟؟

ثم ضحك ضحكة تنمّ عن سخرية، وقال:

– أظنُّ أن الوحش الاسرائيلي التهمه كما التهم سيناء والجولان.

وبينما هم يتحاورن كان لغط يترامى الى ازماعهم.

وجاء هاتف ينادي:

– استيقظوا، استيقظوا، القبور تتحرك والشواهد تمشي.

ضحك أبو محمد وقفز من مكانه وهو يصيح:

– لم أكذب، صدقوني لم أكذب، صدقوني أيها الناس قلت لكم استيقظوا أن القبور تتحرك وشواهدها تمشي.

وقف الشباب مندهشين لما يجري، ما المقصود بإثارة قضية تعتبر في منطق العقل خرافة.؟ كيف يمكن للقبور أن تتحرك ولشواهدها أن تمشي.؟ وبأي عقل يمنطقون ما يسمعون؟.

كان أهدأ الجميع وأقدرهم على الحديث الحاج حسن الذي بادرهم سائلا:

– أي القبور تتحرك.؟ واي الشواهد تمشي.؟

أجاب الهاتف وصوت أبو محمد بصوت واحد كأنه انطلق من حنجرة واحدة:

– قبور الشهداء، قبور الشهداء.

قال الحاج حسن:

– هل سمعتم أيها الشباب أي قبور تمشي.؟ هل عرفتم لماذا صدقت.؟ وأنتم هل حاولتم أن تستيقظوا لتروا القبور وهي تمشي.؟ ألم تسألوا انفسكم إلى أين تسير وبأي اتجاه نحو الشرق أم نحو الغرب.؟ ولماذا تسير.؟ ألم تفكروا باستقبالها؟.

ولكن الحاج حسن بعصاه شابا مديد القامة، كان بجواره وقال له "هيا استيقظ، استيقظ". ومشى وكان الشباب يتبعونه.

30– تشرين الثاني – 1972